نجيب محفوظ

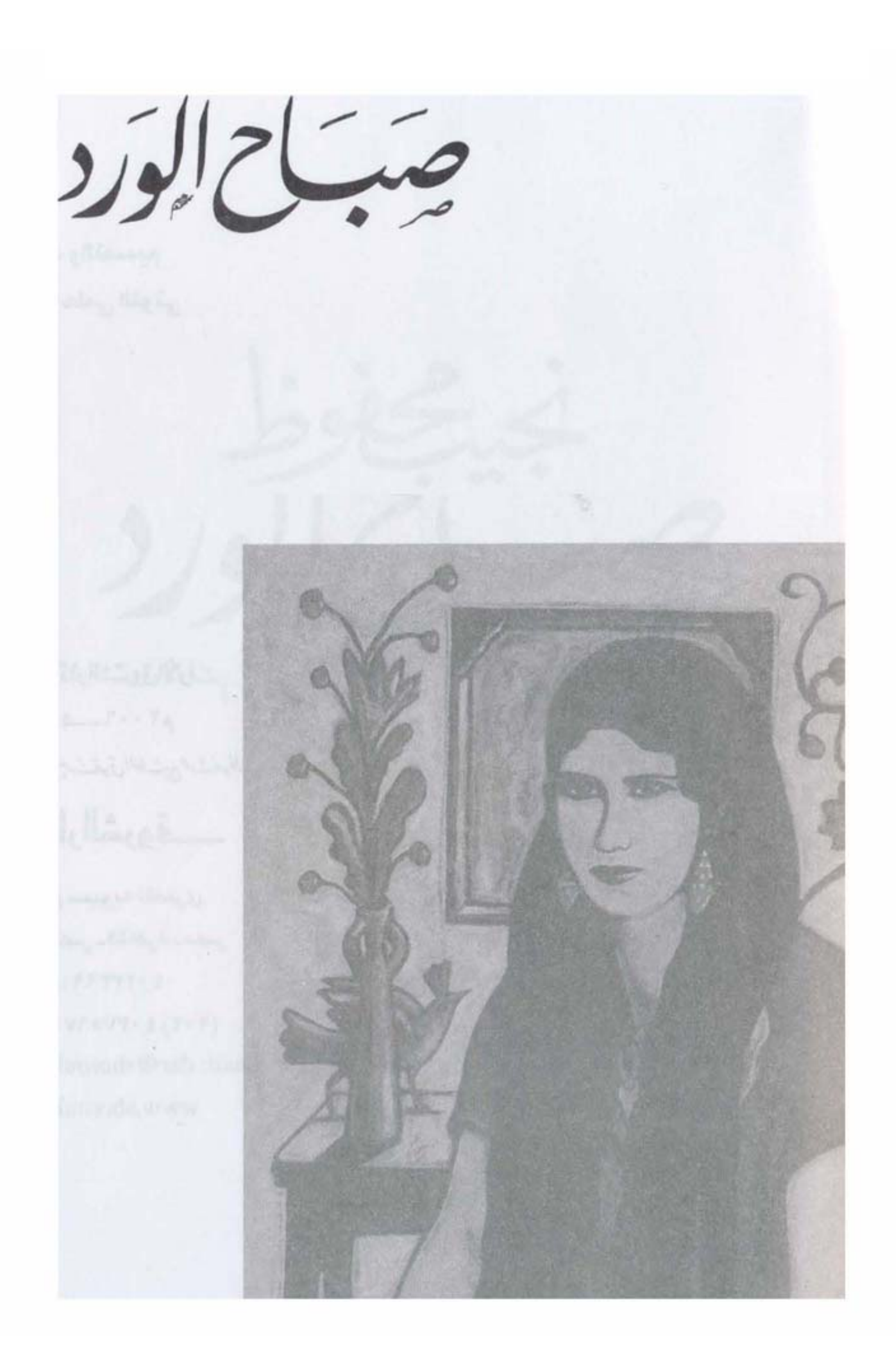
صباح الورد



نجيب محفوظ

صباح الورد

دار الشروق


صباح الورد

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

المحتويـــات


أم أحمد

لو رجعت إلى الذاكرة ما وجدت إلا صورا متناثرة لا تعنى شيئا. قمرا يطل من نافذة عالية، أقمارا ثلاثة يخرجن من تحت القبو صفا واحدا، حنطورا يتهادى فى الميدان بامرأة كالمحمل. الزمن القديم فى الحى العتيق، لم يبق من حياته الحافلة إلا ما تعيه الطفولة. مناظر غائمة وأصوات غائبة وحنين دائم وقلب يخفق كلما حركته روائح الذكريات. ما كان أجدر ذلك كله أن يتلاشى فى ظلمة الماضى، فلا يستطيع الحب أن يستنقذه من الموت، لولا خالدة الذكر أم أحمد. قوية، سمراء، متحدية، فى ملاءتها اللف ووجهها السافر وشبشبها الرنان وصوتها الغليظ النافذ ولسانها الذى لا يهمد ولا يعرف الحرج. بيتها كان يقع ملاصقا للشرفة التاريخية لبيت القاضى، يصل إليه الزائر من ممر ضيق متصاعد مترب، فى جانبه كارو قديمة مركونة مهملة، وأحيانا يرى حمارا واقفا يقتات التبن من مخلاة تطوق علاقتها عنقه، كان يشدنى إلى مأواها العربة المهملة والأمل المثابر العنيد فى الالتقاء بالحمار الهادئ العذب، وهناك أراها وهى تطهو الطعام أو تطعم الدجاج أو تتسلى بمشاجرة شفهية عابرة. فى شبابها اليافع ـ الذى لم أشهده ـ كانت زوجة لمعلم كارو.

أنجبت منه بكريها أحمد وزينب وسيدة وسنية. ولعلّى لمحت الرجل وابنه مرة أو مرات كشيئين من الأشياء التى يموج بها الميدان التاريخى، ميدان بيت القاضى، ولكنى علمت مع الأيام أن المعلم قتل فى معركة

بأرض المماليك وأن ابنه أحمد مات فى السجن . ولم أشهد أم أحمد فى حزنها ، حتى حين لحقت زينب بأبيها وأخيها لمرض فتك بها فى زمن متأخر نسبيا . كلا ، لا أذكر أنى رأيتها باكية أو مولولة أو شبه يائسة ، ما عهدتها إلا متماسكة قوية ضاحكة أو محدثة . غارقة حتى قمة رأسها فى أعمالها . ومشروعاتها ، تعيش يومها وتبنى للغد . وأذكر قول أمى عنها «لولا قوتها الخارقة لأهلكتها الأحزان» ، وهو قول لم أع معناه تماما إلا فيما بعد ، فعلمت أن أم أحمد التى عرفتها ما هى إلا الثمرة الأخيرة لصراع طويل مع الألم كتب لها فيه النصر . فمنذ وجدت نفسها وحيدة توثبت بهمة صلبة للكفاح فى الحياة المتاحة حتى ظفرت بوظيفتها المرموقة فى الميدان والحارات المتفرعة عنه فباتت أشهر شخصية دون منازع . هى الخاطبة والماشطة وأخصائية التجميل والسعادة الزوجية ، وشقت طريقها إلى سرايات الحى جميعا وبيوت الطبقة الوسطى ، إلى قيامها بمهام الصحافة والإذاعة والمخابرات ، وتحسنت أحوالها ، ثم توجت كفاحها بتشييد بيت لها من طابقين على كثب من قسم الجمالية . وألحقت سيدة بالمدارس فصارت معلمة أما بنتها الصغرى وكانت أجمل إنتاجها كله فقد أحبها ابن الأسرة الساكنة فى الطابق الأول من بيتها وتزوج منها وأصبح فيما بعد من رجال التربية الكبار فى مصر . المهم أن أم أحمد جذبتنى بسحر حكاياتها عن الجيران ، وخاصة أهل الطبقة العليا ، وهى حكايات لا يعرف مدى الصدق فيها إلا الله ولكنها تحرك الشهية دائما لدورانها حول أولئك السادة الممتازين . ولم تنقطع أم أحمد عن زيارتنا عقب انتقالنا إلى العباسية ، فقد سبقنا أهل السرايات إلى العباسية الشرقية ، فانتقل المجال الحيوى لأم أحمد من حى الحسين إلى العباسية تبعا لذلك مؤصلة ممارسة وظائفها الساحرة . ولم تتوقف عن نشاطها حتى بعد أن تقدم بها العمر ، أو بعد أن أدت فريضة الحج وأمست الحاجة أم أحمد ، ولكنها اضطرت إلى لزوم دارها بعد أن

زحف عليها العجز وضعف بصرها وقلت حركتها قبل رحيلها عن الدنيا فى ختام الثمانينات. ولا أزعم أنها أحسنت تعريفى بأفراد السادة والسيدات من أهل سرايات حارتنا، ولعلها هى نفسها لم يتح لها أن تعرف حقيقتهم ولكنها اهتمت بعموميات لا بأس بها وبشئون مما يتصل بعملها، وعلى أى حال فقد عرفت حقائق عن الأسر ككل كما عرفت أشياء عن مصائرها. وهى فى جملتها تعد ثروة هامشية تضاف إلى التجارب التى حصلها الإنسان بنفسه وحواسه وقلبه. ورغم ما عرفت به أم أحمد من صفات الغجر فقد حظيت بإعجابى لقوتها الذاتية وصلابتها وشجاعتها وذكائها وانتزاعها من الصخر الأصم مكانة مرموقة بين أرقى سيدات ذلك الزمان، ولن أنسى أيضا منظرها وهى واقفة فوق الكارو بين جارات لها فى إحدى المظاهرات الوطنية تهتف بصوتها المدوى لسعد ومصر.

وحارة قرمز ذات جدران حجرية عالية، تغلق أبوابها على أسرارها، ولا تبوح بسر إلا لمن ينظر فى داخلها، هناك يرى ربعا آهلا بالفقراء والمتسولين يجمعهم الفناء للعمل المنزلى وقضاء الحاجات، أو يرى جنة تغنى بالحديقة والسلاملك والحراملك. من نافذة صغيرة عالية قبيل القبو يلوح أحيانا وجه أبيض كالقمر، أراه من موقعى فى نافذة بيتنا الصغير المطلة على الحارة فأهيم رغم طفولتى فى سحر جماله، وقد أسمع صوته الرخيم وهو يبادل أمى التحية إذا خلت الحارة من المارة فلعله بث فى روحى حب الغناء، فاطمة العمرى، حلم الطفولة المجهول، وموعد اللقاء النافذة، وإذا توارت يوما فإنما لتلقننى الألم قبل أوانه. وكلما غابت حدجت أمى بنظرة عتاب كأنما هى المسئولة عن غيابها فتضحك طويلا وتحكى لأم أحمد عن العاشق الصغير لتتلقف الخبر لتزفه إلى فاطمة ثم ترجع إلينا برسالة سعيدة أن أشد حيلى وأنها ستنتظر عريس الهنا مهما يطل الانتظار. ثم تقول:

ـ ولكنك تعشق أمها أيضا فما حكايتك؟

أمها؟! أراها أحيانا فى الحنطور وهو يتهادى بها فى الميدان وعيناها الجميلتان تطلان على فوق حافة البرقع الأبيض، وجسمها المتمادى فى العظمة يملأ المقعد بتمامه. وتضحك أم أحمد ثم تقول لأمى:

ـ زينب هانم قالت لى إنها رأته (مشيرة إلى) وهو يتطلع إلى ما بين ساقيها المنفرجتين حتى اضطرت إلى ضمهما. أيعجبك هذا؟!

من هؤلاء الناس الذين ليسوا كبقية الناس؟ العمرى ـ والعهدة دائما على أم أحمد ـ رجل قد الدنيا، صاحب فابريكة النحاس ومحل بيع النحاس بالصالحية، أصلهم من القدس، والجد الكبير هاجر إلى مصر ليستثمر أمواله، أنشأ فابريكة فى الخلاء قبالة الجبل، ويوم حملت الآلات من محطة مصر إلى الفابريكة محمولة على الكارو تجمع الأهالى ينظرون ويسبحون لله القادر على كل شىء، ومن يومها ما من عروس تزف إلا وتقتنى نحاسها من محل العمرى. وآل الخير كله لحسين بك العمرى زوج زينب هانم، وشيد الرجل سراياه فى درب قرمز، وأنجب فاطمة الجميلة وثلاثة ذكور.

وكانت زينب هانم وأمى يتبادلان الزيارة فتجىء الهانم وحدها دون فاطمة وتذهب أمى وحدها بدونى رغم توسلاتى الباكية. وبقدر ما كانت تعجبنى عينا زينب هانم إلا أن جسمها الضخم كان يخيفنى. ومن عجب أن الحارة كانت أسرة كبيرة واحدة لا تعترف بالفوارق الطبقية. أجل لم يكن التزاور ممكنا بين الربع والسراى ولكن السرايات كانت تفتح أبوابها لأهل الربع فى رمضان والأعياد، يجلسون فى الحديقة، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين. وكشفت أم أحمد عن جانب من دورها فى سراى آل العمرى فقالت إنه بفضلها استقرت الحياة الزوجية بين حسين بك وزينب

هانم، وبفضل وصفاتها النادرة تمادت المرأة فى العظمة حتى حاكت المحمل السلطانى. وقالت وهى تقهقه:

- وهى اليوم تضرب زوجها باليد والعصا!

وذهلت أمى فقالت أم أحمد مستدركة:

- بالدلال والحب!..

ليس كالضرب الذى نستعمله! أى نوع من الضرب ذاك؟!

- وهذا اللحم الأبيض الذى تغوص اليد بين طياته الطرية من صنع يدى!

مرة أمرت الحنطور أن يتوقف حيالى وأنا ألعب فى الميدان، ومدت لى يدا بضة بذراع مطوقة بالأساور الذهبية لتهبنى قطعة من الملبن بالقشدة فتناولتها فرحا متلقيا فى ذات الوقت مما ذقته من عبير جميل نافذ كأنه عصير مركز لحديقة ورد. وكم شغفتنى زيارات الهوانم بهداياها اللطيفة اللذيذة.

- وودت أن أسرع فى تسمين فاطمة ولكن أمها أجلت إلى ما بعد الزواج..

وتساءلت أمى عما يؤخر زواج الجميلة رغم بلوغها الخامسة عشرة فقالت أم أحمد:

- حسين بك مصمم على ألا يزوجها قبل الثامنة عشرة..

- ولكنها سن متأخرة يا أم أحمد..

- لحسين بك رأيه أيضا ولكن الاختيار ينحصر فى اثنين أحدهما وكيل نيابة والآخر طبيب..

وأحسست على نحو ما بأن فاطمة ستمضى ذات يوم إلى بعيد مثل أخواتى وإخوتى ولن يبقى منها فى أحلامى إلا الشذا. حتى الطفولة المبكرة لم تخل من حسرات على أشياء جميلة ومحبوبة يترصدها

الضياع والفناء. ودهمتنا ثورة ١٩١٩ ونحن ننعم بالهدوء والنعسان. استيقظت بغتة على دوى الهتاف وفرقعة الرصاص ورأيت الألوف الغامضة. حتى أم أحمد رأيتها فوق الكارو تهتف. وزارتنا بعد أيام لتسأل إن كنا رأيناها. كانت تتيه دلالا بالعزة والنصر.

ـ سينصرنا الله على الإنجليز ويتم لنا الإفراج عن سعد.. وهى التى أبلغتنا بعد ذلك باعتقال حسين بك العمرى تمهيدا لتقديمه للمحكمة العسكرية الإنجليزية. ولكنه أفرج عنه فيمن أفرج عنهم عقب الإفراج عن سعد، فرجع إلى حارة قرمز رجوع الأبطال. فرشت أرضها بالأكمة وتناوحت فى سمائها الثريات والأعلام، وزغردت النساء من وراء المشربيات وتعالى هتاف الفقراء رغم ما فقدوا من أبناء. ووقفت أم أحمد بنذرها فرقصت أمام باب السراى وهى تنشد «سلمى يا سلامة». وحتى مأمور قسم الجمالية جاءه مهنئا بعد أن اعتقد الجميع أن الإفراح عن سعد ما هو إلا مقدمة للاستقلال التام، وبعد فترة قصيرة حملت المرأة إلينا خبرا مزعجا وهو أن آل العمرى قر رأيهم على الانتقال إلى العباسية حيث اشتروا أرضا فضاء لإقامة سراى كبرى. وتساءلت أمى هل هان عليهم حقا أن يهجروا الحارة التى هى أصل الخير والبركة. فقالت أم أحمد بيقين:

ـ بعد عام أو عامين لن تجدى أسرة واحدة من أسر الأعيان فى الحارة..

يا له من خبر!.. وكيف تكون الحارة إذا انطفأت أنوارهم؟!

ـ الدنيا تتغير بسرعة، الأحياء الإفرنجية هى الموضة اليوم، والعباسية مترامية الأطراف، وفيها متسع للمستورين أمثالكم...

ـ ونبعد عن الحسين؟!

ـ سوارس تنقلك إليه فى نصف ساعة..

وتحقق مع الزمن ما خطر لأم أحمد فانتقل الأعيان إلى العباسية الشرقية وشيدوا قلاعهم العملاقة، كما انتقلت الطبقة الوسطى «المستورون» إلى العباسية الغربية فسكن البعض بيوتا صغيرة واشترى البعض ما يناسبه. ولم تتواصل الرابطة القديمة بين الطرفين فسرعان ما تعرضت للوهن والتمزق. لأمر ما شغل كل فريق ببيئته الجديدة وكأن شارع العباسية الذى يفصل بين الجانبين أصبح سدا لا يعبر إلا فى الملمات وقد لا يعبر أبدا. عدنا غرباء أو كالغرباء، بل صرنا مع الزمن أعداء أو شبه أعداء. وحمل إلينا الزمن أفكارا جديدة تكرس العداوة والانفصام، وحتى الانتماء للحزب الواحد لم ينجح فى محو تلك الغربة الزاحفة. واعتدت أن أجعل من العباسية الشرقية مرتادى ونزهتى خاصة فى أصائل الصيف، أتمشى فى شوارعها الواسعة وميادينها الأنيقة، أقلب النظر فى القصور الشامخة والحدائق الغناء. وأتذكر أحيانا الجيرة القديمة الحميمة الصادقة التى تلاشت فى الفضاء، وأتذكر الوجوه المليحة التى علمت القلب الحب قبل الأوان، أتساءل ترى أين أنت الآن يا فاطمة؟.. وهل خلق منك الزمن زينب هانم جديدة؟ وجاءتنا بالأنباء فى حينها أم أحمد التى ظلت الرابطة الباقية بين الطبقتين المتباعدتين. حدثتنا طويلا عن تضخم ثروة حسين بك خاصة بعد الحرب، وعن إشراك أبنائه الثلاثة معه فى المصنع والمحل، وإصهارهم الموفق إلى أسر من طبقة الباشوات، أما فاطمة فقد تزوجت من وكيل النيابة. ووجدتنى قد نسيت صورتها تماما فلم يبق فى خيالى إلا نفحة من جمال مجرد وصدى صوت رخيم شديد التأبى والتمنع على الذاكرة. وعلمنا أيضا بإصابة زينب هانم بمرض السكر وكيف استفحل معها المرض لعجزها عن الانضباط أمام إغراء الحلوى، أجل فقدت الهانم بصرها فى الخمسينات، ثم ماتت فى الأسبوع الأول لقيام ثورة يوليو. والحق أن الثورة لم تمس آل العمرى بسوء، ولعله كان من حسن

حظ حسين بك أنه هجر الاشتغال بالسياسة عقب انشقاق السعديين عن الوفد، غير أنه شارك أبناء طبقته فى خوفهم الثابت وقلقهم الدائم وشعورهم بإدبار الدنيا عنهم. وحديث أم أحمد عن السادة لم يخل أبدا من عطف رغم تعلقها بثورة يوليو وزعيمها. أحبت ثورة يوليو كما أحبت ثورة ١٩١٩ ولكن حبها لزبائنها القدامى لم يفتر أبدا، وهى التى قالت لنا يوما بجزع واضح:

ـ أما سمعتم عما حدث لزوج فاطمة هانم العمرى؟

آه.. فاطمة الجميلة، ماذا حدث لزوجها؟

سافر المستشار فى رحلة قصيرة إلى سويسرا، وهناك قابل أحد رفاق صباه وكان هاربا من عبد الناصر ولا يكف عن مهاجمته، ولما رجع المستشار إلى مصر دعى لسؤاله عن مقابلاته لصديقه القديم، ثم لم يظهر له أثر بعد ذلك.

ـ لعله مازال معتقلا؟

ـ أبدا.. قيل لهم إن سؤاله لم يستغرق إلا ساعة أطلق بعدها سراحه..

ـ لعله وقعت له حادثة فى الطريق؟

ـ وهل يصعب الاستدلال على شخصية مستشار قد الدنيا؟!

ويسود صمت ثم تواصل أم أحمد:

ـ فاطمة هانم تؤكد أنهم قتلوه ودفنوه فى أى خلاء وانتهى الأمر..

اليوم ـ وبعد رحيل أم أحمد عن الدنيا فى الثمانينات ـ لا أعرف شيئا عن آل العمرى، ولعله لا يهمنى أن أعرف شيئا. ولكنى قرأت هذا العام نعى فاطمة الجميلة فى الأهرام ولم يمض الخبر بلا حزن ولكنه حزن من نوع خاص، لا كالحزن على الأقارب أو المعارف أو الأصدقاء. إنه حزن يتأدى كأنه شعيرة تتلى فى محراب الوجود على لا شىء أو على كل

شىء. ثم قرأت عنها رثاء جميلا فى إحدى المجلات النسائية بوصفها من رائدات رعاية الطفولة، تلك الرعاية التى بدأتها بتلقائية معى فحفرت أثرها الطيب فى أعماق قلبى.

وآل سعادة بعد آل العمرى يومضون فى غياهب الماضى الجميل. تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثرى العتيق. هناك يطالعك جدار عال مركب من أحجار كبيرة تاريخية، أما مدخله فيفتح على عطفة جانبية. ورؤيتى لآل سعادة تتم عادة وأنا فى الحارة عندما يخرجون من جوف القبو فى طريقهم إلى ميدان بيت القاضى، تنطق وجوههم المشعة بأصولهم الشركسية. هذا عبد الحميد بك سعادة رب الأسرة بقامته العالية وعوده النحيل ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وعينيه الزرقاوين وأنفه الحاد الطويل المقوس، يرفل فى بذلة أفرنجية وعمامة بيضاء، متوكئا على عصا سوداء ذات مقبض ذهبى. صارم النظرة، متعالى الهيئة، ينظر أمامه، لا يعنى بما حوله. يبث حيث يسير الخوف فيستقبله الاحترام وتتبعه الكراهية. وهذا بكريه الشاب فاضل سعادة ينور المكان بلمعانه وبسحره بأناقته وحسنه وثيابه الفاخرة. وهؤلاء بنات سعادة الثلاث، بين الطفولة والصبا، جميلات فاتنات ساحرات، يسرن صفا إلى الميدان لشراء الشيكولاته والدندورمة، يذهبن بلا مرافق ويعدن بلا مرافق غير مباليات بتقاليد الأسر الكبيرة والمتوسطة، وجمالهن يشفع لهن عند الرأى العام الرافض لتعالى الأسرة وعزلتها، أما ربة الأسرة فلا ترى أبدا راكبة أو راجلة، دائما معتصمة بالقلعة وراء الجدران والستائر. كم ولعت عيناى بالجميلات الثلاث وخصوصا الصغرى، وكم حلمت بأن ألعب معهن تحت القبو أو فوق السطح ولكنهن كن يذهبن بسرعة الأحلام ويبقين فى النفس بقوة الخيال. وآل سعادة يمثلون البطالة المستغنية عن العمل، المعتمدة فى معيشتها على الأوقاف، يقضى الأب وقته بين الكلوب المصرى والمقاهى الكبرى فى وسط المدينة. ويقنع

فاضل بالحصول على الابتدائية، ولا يشك أحد فى ثرائهم الكبير إلا أم أحمد التى تقول وتعيد:

ـ إنهم أصحاب أصل ولكن ثراءهم دون ما يظن الناس بكثير..

وعزلة ربة البيت ليست نتيجة للتقاليد أو الكبرياء وحدها ولكنها ردة فعل لحزن عميق..

ـ الحزن؟!

تتساءل أمى فتقول أم أحمد:

ـ الرجل طول عمره عينه زائغة!.. وذوقه قذر لا كمظهره.. يجرى وراء الخادمات والساقطات، وزوجه والحق يقال بنت ناس وآية فى الجمال!

ـ وطبك المجرب يا أم أحمد؟

ـ منع الطلاق ولكنه لم ينج من القدر، وقد جربت سلطانة هانم الرشاقة ثم نفختها حتى فاقت زينب هانم فى الحجم ولكن المكتوب مكتوب.

وتتفكر قليلا ثم تواصل:

ـ ولكنها انتقمت من الرجل وهو لا يدرى، فخانته كما يخونها..

ـ ولكنها لا تغادر القلعة أبدا!

فتقول أم أحمد مقهقهة:

ـ لا يتعذر على اللبان أن يتنكر فى زى امرأة ويندس إلى الحريم.

وفاخرت أم أحمد بأنها الوحيدة فى الحى التى تصافح عبد الحميد بك سعادة والتى يقول لها دون تأفف: كيف حالك يا أم أحمد.

ولعلها الأسرة الوحيدة التى شهدت ثورة ١٩١٩ من بعيد دون اشتراك من أى نوع كان.

وبعد أشهر من قيام الثورة توفى عبد الحميد بك، ولم يشيع جنازته سوى نفر من ذوى القربى وشيخ الحارة ولم يشترك رجل أو امرأة من حارتنا فى العزاء. ولمحت البنات الثلاث وهن يبكين فى نافذة ففاضت دموعى. وسرت وراء المشيعين القلائل حتى جامع الحسين. ولم يكن شيء يثير خيالى وأفكارى مثل الجنازات، وشهدت جنازات معدودة لشبان الحارة الذين استشهدوا فى أوائل الثورة، وصدقت حرفيا الهتاف المعروف «فلان حى لم يمت» وكنت أتوقع أن أراه يعمل ويسير كما كان يفعل من قبل، وتساءلت عن ذلك دون جدوى. وعلى أى حال حل فاضل مكان أبيه، وما لبث أن هاجر إلى العباسية، ولكنا سمعنا أن الأسرة اشترت بيتا فوق المتوسط بغمرة ولم تشيد قلعة جديدة فى العباسية الشرقية، فتبين لنا صدق رأى أم أحمد فى درجة ثرائهم. انتقلت الحارة إلى العباسية ولكن لتعيش فى دويلات مستقلة. ولولا أم أحمد ما عرفنا بزواج فاضل من كريمة وكيل الداخلية.

رضى به زوجا لابنته بعد أن رفض يد طبيب فلاح!

وتزوجت كبرى البنات من صائغ غنى بالصاغة، والوسطى من وكيل نيابة، أما الصغرى وهى أحبهن إلى قلبى فقد عشقت موظفا بسيطا وأصرت على الزواج منه رغم معارضة الأم والأخ وبقية الأسرة، وقد أقامت معه فى بين الجناين لا يفصلهما عن بيتنا إلا خطوات، وهى الوحيدة التى كنت أصادفها فى الطريق فنتبادل نظرة عابرة ولكن مترعة بذكريات الماضى. . وقدر لى أن أرى بكريها الجميل وهو يلعب فى الشارع أو فى الحدائق التى تكتنف الحى وتسكب عليه عبيرها، وطبعا لم أتصور المستقبل المثير الذى كان ينتظره بمنحنى التاريخ. ولما قامت ثورة يوليو مرت بآل سعادة بسلام، بل حل الوقف وأصبحوا أحرارا فى التصرف فى أملاكهم. وعلمت أن الصبى الصغير ابن البنت الجميلة الصغرى من الضباط الأحرار، بل والمقربين. واختير لوظيفة فى

المخابرات وسرعان ما جرى اسمه على كل لسان، واكتسب سمعة مخيفة لا تكون إلا لشيطان! وجعلت أقارن بين ما يقال عنه من حقائق وأساطير وبين صورة صباه الجميلة الوديعة وأتساءل وأتعجب. ورحت أسأل أم أحمد عن رأيها فى ذلك فأرسلت قهقهتها العظيمة وقالت:

ـ صدق من قال إن الأتراك فيهم عرق جنون..

وكانت أسرته قد انتقلت بعد الثورة من بين الجناين إلى المعادى ولم أعد أرى من أفرادها أحدا، ولكن أم أحمد حدثتنا عن استقالة الأب من الحكومة ليشغل وظيفة فى شركة وأنهم يتوغلون فى العز والجاه بسرعة الإكسبريس. وعلى أى حال فقد اندمج آل سعادة أخيرا فى الوطنية المصرية، بل الوطنية الثورية..

إلى يسار قلعة آل سعادة، وعلى مبعدة خمسين مترا تقوم سراى آل البنان. أرى على بك البنان كل يوم فى دوكاره وابنه الصغير محمد صديقى وزميلى وربة السراى فردوس هانم حبيبة أمى وأقرب الجميع إلى قلبها. وعلى بك طويل القامة غامق السمرة ذو مظهر جذاب فى جبته وعمامته البيضاء، يمضى به الدوكار كل صباح من السراى إلى الطاحونة فى مرجوش. هو أتقى الأغنياء بالحارة وأبرهم بالفقراء وأجودهم بالابتسامة، وفى سراياه يقام ذكر كل أسبوع يؤمه جمع من أهل الطريقة الشاذلية وتقول عنه أم أحمد.

ـ على بك غنى وما غنى إلا الله..

ثم ترجع إلى التاريخ بصوت منخفض قائلة:

ـ كان أبوه يسرح بالبن على باب الكريم، وفتح دكانا صغيرا فى الخرنفش، وقامت الحرب فأمر الله بالثراء ولا راد لأمره. ومات الأب فأنشأ سى علي الطابونة، وشيد السراى، وتزوج من فردوس هانم بنت أكبر حلوانى فى الحى وأنجب البنات كالأقمار، ثم جبر الله بخاطره فأنجب محمد على كبر.

أهل حارتنا لا فرق فيهم بين غنى وفقير وهم يعترفون بفضل الله عليهم ولا يتنكرون لأصلهم ودعك من آل سعادة فهم مجانين من ذرية مجانين . .

محمد الصغير كان قرينى فى اللعب فى الميدان وفى قطف ذقن الباشا من أشجار البلخ . ودخلنا الكتاب معا فمكث فيه عامين أكثر منى لينقطع بعد ذلك عن التعليم ويمارس العمل فى الطاحونة والمحل تحت رعاية أبيه ، بدأ العمل فى العاشرة ، وقرر على بك أن يشعره بالرجولة قبل مجيئها فألبسه الجبة والعمامة وعامله بجدية تفوق ما يحتمل عمره . وأذهب إلى مرجوش كلما سنحت فرصة لأشاهد صديقى من بعيد وهو يعمل فنتبادل البسمات الخفية بعيدا عن أنظار أبيه . وعند فراغه من عمله يرتدى جلبابه ويهرع إلى فى الميدان لنلهو بألعاب الصبيان . ولما قامت ثورة ١٩١٩ شارك على بك فيها بماله وقلبه ولسانه ، واعتقل فى يوم واحد مع حسين بك العمرى ، ولكنه واصل نشاطه السياسى بعد ذلك حتى انتخب عضوا فى أول مجلس نواب بعد الثورة . وحافظ على عضويته فى جميع البرلمانات الوفدية حتى آخر برلمان قبل ثورة يوليو . وعقب الثورة انتقلت الأسرة إلى سراى جديدة بالعباسية الشرقية ، وزوج الرجل ابنه محمد وهو ابن خمسة عشر عاما ، وأحيا فرحه صالح عبد الحى وبمبه كشر .

ولم ينقطع ما بيننا وبين آل البنان بالسرعة التى انقطع بها ما بيننا وبين الآخرين ، ولكنه انقطع على أى حال . والظاهر أن روح الألفة والتضامن المنبثة فى الحارة تتلاشى فى الأحياء المترامية . إلا تراث أم أحمد من الخدمات والأساطير فهو باق لا يقتلع من صدور الناس على اختلاف طبقاتهم . ويكتسب أهميته المتجددة من ينابيع الحب والجنس والأحلام الخالدة . وهى أم أحمد التى أخبرتنا على المدى بزيجات بنات البنان ، واحدة من محام ، والثانية من مهندس رى ، والثالثة من وكيل

وزارة، وأن الأولى شهد زفافها سعد زغلول كما شهد زفاف الأخرين خليفته مصطفى النحاس. ولكن المجتمع تغير فى علاقاته وتياراته وأفكاره، احتدم الجدل والخصام بين أجياله، حتى قامت ثورة يوليو لتواجه التناقضات الجديدة قبل أن تجتاحها ثورة شعبية جائحة. ووجد على بك البنان نفسه فى مرمى مدافع التغيير الثورى، وحمل من سراياه إلى أعماق السجون وهو لا يدرى لذلك سببا، ثم وضع تحت الحراسة، فران على الأسرة ستار أسود من الحزن والغم، وانفجر شريان فى رأس الرجل فرحل عن الدنيا مستعيذا بالله من الناس وشر الناس، على حين انزوى ابنه محمد فى ذعر مقيم. وتصورت أم أحمد أن تلك الأحداث يدبرها رجال عبد الناصر من وراء ظهره وتمتمت متنهدة:

ـ عينى عليك يا على بك يا أمير وعلى أيامك الحلوة.

ولحقت فردوس هانم بزوجها بعد رحيله بعام، ولكن محمد البنان استرد نشاطه فى عهد الرئيس السادات، وعاونه الانفتاح فعوض خسائره وضاعف ثروته، بل وتردد اسمه فى صحف المعارضة باعتباره من وحوش الانفتاح، فأى حياة وأى سخرية من عجائبها!

* * *

آل المردانى يشكلون الأسرة الرابعة من أعيان الحارة. وتقع سراياهم عند طرف الحارة الآخر المتصل ببين القصرين. وتقسم أم أحمد أنها رأت أباه المردانى الكبير يتجول فى الحارة حافيا.

ـ ولكنه الحظ والشطارة والحرب..

على أى حال نشأ عباس بك المردانى من كبار تجار الجملة فى العطارة، وهو الذى شيد السراى التى تعتبرها أم أحمد أجمل وأفخم سرايات قرمز..

ـ أما زوجته فرحة هانم فهى من أصل مملوكى، جميلة وما جميل إلا سيدنا محمد . .

فتقول أمى :

ـ جميلة نعم ولكنها لا تخلو من عنطزة!

ـ المال كثير يا حبيبتى . .

ـ أهم أغنى من البنان؟

ـ عباس بك المردانى أغنى رجل فى الحارة .

وتسكت مليا ثم تواصل :

ـ لم ينجب إلا ولدين وانقطعت الهانم عن الحبل لداء احتار الأطباء فيه!

ـ وماذا فعلت أنت يا أم أحمد؟

ـ فعلت الكثير ولكن إرادة الله فوق كل إرادة . .

وكان عباس بك ضخم الرأس والوجه، غليظ القسمات، بدينا لحد الإفراط ولكنه كان كريما محسنا وابن نكتة، وكان سلاملك سراياه صالونا للظرفاء وذوى الحناجر الطيبة من الهواة وصغار المحترفين. ولما قامت ثورة ١٩١٩ أيدها بماله ولكنه لم يكن ذا استعداد للاشتراك فى الشئون العامة مثل حسين بك العمرى وعلى بك البنان. واقتحمت الثورة سراياه وهو لا يدرى فانتزعت منه بكريه محمود الطالب بالزراعة العليا حيث قتل فى إحدى المظاهرات. وقالت أم أحمد :

ـ لم يبق له إلا شاكر، وكثيرون ينصحونه بالزواج من أخرى . .

ـ مسكينة فرحة هانم!

ـ وحزنها فاق كل حد ربنا يصبرها . .

وانتقل عباس بك المردانى إلى العباسية الشرقية كآخر الأعيان

المهاجرين، ولولعه الشديد بالهانم زوجته نبذ فكرة الزواج من أخرى، وكان أول من اقتنى سيارة . . «فيات» من الأعيان، وكانت تثير الخواطر إذا مرقت فى شارع العباسية فى ذلك الزمان بسحرها الخاص وأزيزها الذى يكدر الهدوء الشامل . وانتهت حياة عباس بك نهاية درامية مأساوية فى الثلاثينات وهو فى غاية الصحة والعافية والحيوية . وكان يهم بدخول شيكوريل فأصابته رصاصة طائشة فى معركة نشبت بين يونانيين فجرت مأساته على أوسع نطاق . وكان شاكر بك ابنه قد أصبح محاميا فصفى تجارة والده . وأخبرتنا أم أحمد أنه تزوج من فتاة بارعة الجمال تمت بصلة القربى للسلطان عبد الحميد .

وقد انضم شاكر بك إلى الوفد، وتجلى نشاطه فى الصحافة والبرلمان، ولكنه انضم إلى السعديين عند انشقاقهم وتقلد الوزارة مرتين ولما قامت ثورة يوليو اعتقل أكثر من مرة وفى مناسبات مختلفة، ثم وضع تحت الحراسة فهام على وجهه كالمجنون . وكانت أم أحمد ترثى لحاله وحال أسرته وأمه ولكنى عرفت عنه أشياء . . من بعض الصحفيين، لم يكن من المستطاع أن تبلغ علم أم أحمد . قيل ـ والله أعلم ـ أنه عمل مرشدا للمخابرات، وقيل إنه وضع نفسه فى خدمة بعض من العرب كقواد دون لبس أو إبهام، وأنه بذا وذاك أمن المزيد من العسف وكون ثروة كبيرة . وكانت تلك الثروة دعامته فى عهد الانفتاح ليقفز إلى درجات خيالية من الثراء . اليوم الظاهرة الغالبة عليه هى التدين، وكأنما يكفر عن تناقضات حياته الحافلة بالألم والذكريات الأسيفة .

خطر لى ذات يوم أن أزور أم أحمد بعد انقطاع طويل . وجدتها فى بيتها مع ابنتها المحالة إلى المعاش بعد خدمة كاملة فى التعليم . كان بصرها قد كف وقدرتها على الحركة قد ولت . ولما عرفتنى فتحت لى ذراعيها بحرارة وشوق، ثم جلست على كرسى جنب فراشها . لعل

لسانها هو العضو الوحيد الذى بقى محافظا على حيويته. ورحنا نتذكر ونتذكر ونقلب صفحات الماضى البعيد والقريب. جلنا معا فى جنبات عالم حافل بالأموات، ألا ما أكثر الراحلين، كأن الوجوه لم تشرق بالسناء والسنى فى ظلمات الوجود وكأن الثغور لم ترقص بالضحك، ها هى راوية الحكايات وطبيبة الحب والجنس والسعادة ملقاة على الفراش القديم تشكل عبئا يوميا على أقرب الناس إلى قلبها. وما قيمة الحكايات يا أم أحمد وهى تتكرر بصورة أو بأخرى قبل أن تلقى نفس المصير. وقد عبرت الحارة من أولها لآخرها وانغمست فى العطر القديم. رأيت قلعة آل سعادة مغلقة مهجورة كالبيت المسكون، أما السرايات الأخرى فقد صارت إحداها مدرسة والثانية مستشفى والثالثة مقرا للحزب الوطنى. وتنبثق من الماضى أصوات وألوان ونبضات قلب فأقول لها لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ثم فرقت بيننا الأيام، فإلى اللقاء فى المقر الأخير.

صـــبـــاح الـورد

لم يبق من شارع الرضوان القديم إلا موقعه ما بين شارعى العباسية وبين الجناين، ويحتفظ أيضا بميل سطحه الطبيعى من مرتفع الشرق إلى منخفض الغرب، غير أن بيوته قد انقلبت عمائر وتحولت الحقول والحدائق إلى أرض فضاء تباع فيها الخردة ومخلفات السيارات. وحل سكان جدد لا يحصيهم العدد مكان سكانه القدامى الذين تشتتوا فى الأحياء أو استقروا فى جوف الأرض. كان يستكن فى حضن الهدوء الشامل، محاذيا فى حبور الحقول والحدائق، يشمل بمناجاة يومية مع أشجار الحناء والياسمين والتين والخضروات، وخرير السواقى، مزهوا ببيوته المهندمة ذات الحدائق الخلفية الصغيرة. فى الشتاء تسقفه السحب وتتجهمه وجوهها المكفهرة، وحتى إذا أمطرت مطرة واحدة سال سطحه المائل بالمياه الجارية لتتجمع فى شارع بين الجناين صانعة نهرا منه يفور بالزبد، وفى الصيف تلهبه الشمس فتنطلق من صنابير جدرانه خراطيم المياه ترش الأرض مهدهدة حرارتها الحامية. وينظر القادم من الحى الشعبى العتيق فيما حوله بدهشة وسرور، ولا يجد فى قاموسه وصفا للشارع والبيوت والناس إلا أنه شارع إفرنجى وبيوت إفرنجية وأناس متفرنجون، لا ينقصه إلا القبعة واللغة الأجنبية. ومع ذلك فقد ترى القبعة فوق شعر مقصوص ألاجرسون، أو تسمع الفرنسية فى حوار عابر، وقد نطق صبيانه بجملة «أحبك وأعطنى قبلة» بالفرنسية قبل أن يتعلموها فى المدارس بسنوات طويلة.

واستقرت أسرتى فى بيت من البيوت فى منتصف الجناح المطل على الحقول، أمى وأبى وأنا أما الإخوة والأخوات فقد هاجروا هجرة دائمة إلى بيوت الزوجية. والنقلة من الجمالية إلى العباسية فى ذلك الزمان تعتبر وثبة من القرون الوسطى إلى أعتاب العصر الحديث. توارت الحارة والأزقة بعبيرها العنبرى ومصابيحها الغازية وعرباتها الكارو وملاءاتها اللف والجبب والقفاطين والعمم. وتلقانا الرضوان، ملتقى الريف والمدينة، بعصرية مقتحمة مهديا إلينا المياه والكهرباء والصرف الصحى وسرعان ما استبدلت بالجلباب البيچاما، والكرة بالسيجة والجرى وراء عربة الرش، كما كتب على أن أرى السيقان والأعناق لتتفتح على إقاعاتها مراهقتى. كنا أول من هاجر من الطبقة الوسطى الصغيرة، فى إثر أعيان الحارة الذين سبقوا إلى العباسية الشرقية فشيدوا القلاع وغرسوا الحدائق. وكان والداى قد فارقا الشباب بعقد أو عقدين من السنين، والحق أن فرحتهما بالحياة الجديدة شابها اكتئاب وحنين، ولم يستطعا التحرر من هيمنة الحى القديم على قلبيهما، من أجل ذلك لم ينقطع أبى عن حيه، أناسه ومقاهيه، وكذلك أمى واظبت على زيارة الحسين وجيران الزمان الأول، وربما سألت أبى فى عتاب:

ـ لماذا هجرنا بيتنا القديم؟

أما أنا فقد انقسمت إلى اثنين، تكيفت مع الجديد وأصدقائه ومجالسه وعصريته، وكلما سنحت فرصة للرحلة للحى العتيق انتهزتها حتى جرفت معى الأصدقاء الجدد فاكتشفوا على يدى عالما غريبا، عشقوه، وأقبلوا عليه كالسائحين. على أى حال فلن يطول حديثى عن بيتنا أكثر من ذلك، ولى عودة إليه إن شاء الله فى حينه. أما الآن وسأقتنع بأن أكون ترجمان الرضوان فيما لديه من قصص. هو صاحب الحكايات الأول، فهو الذى ضم البيوت يمينا وشمالا، وعلى سطحه التقى الصبية ليبدأوا عهد صداقة دائمة، وفى أركانه ذهب الأبطال

وجاءوا، وفى جنباته تطايرت الأخبار وانتشرت، ولو لم يصدق من رواياته إلا نصفها لكفى، بالإضافة إلى أن الزمن كان ينقيها من الشوائب ويسندها بالشواهد، والعبرة فى النهاية بما يقال لا بما حدث، ورد كذبة أصدق من حقيقة، فاستمع إلى شارع الرضوان ولا تكن من المتشككين.

* * *

آل إسماعيل

يقوم بيتهم فى آخر الشارع من ناحية بين الجناين، فى الناحية المطلة على الحقول، وهو يماثل أكثر البيوت بهندسته الأنيقة وحديقته الخلفية، ولكنه بحكم موقعه يطل على الحقول وشارع بين الجناين وشارع الرضوان، ويمتاز بدرجة عالية نوعا بأثاثه واستخدامه لطاه مع الخادمة وهو ما يعد من الاستثناء النادر. وتتكون الأسرة من جمال بك إسماعيل ـ ولا أدرى إن كانت رتبته رسمية أم بالشهرة، الموظف بوزارة الأوقاف، وزوجته كريمة هانم وذريته الجميلة مديحة وسامية وعثمان. أسرة ناجت وجداننا حتى نفذت إلى أعماقه. الأب ربعة كبير البطن كث الشارب مهيب الطلعة، لامع الحذاء والعصا، إذا مر أوقفنا اللعب وتلقينا نظراته الغاضبة فى سكون وامتثال. وربما صاح بنا:

ـ بدل اللعب والقرف روحوا سقفوا عقولكم!

ينطق «سقفوا» لا «ثقفوا» فنغرق فى الضحك بعد ذهابه ويقول قائلنا:

ـ ما هو إلا بغل فخم!

أما كريمة هانم فتسير مختالة بحسنها، متبخترة بلحمها الجسيم كالمحمل، وأما مديحة وسامية فما أجمل ما يشف عنه النقاب من جمالهما الغض، حتى عثمان تميز بالجمال ولكن رقته الأنثوية جرت عليه التعليقات الساخرة الحادة. وترفع عن صداقتنا لفارق عمر بسيط وكم عبر بنا دون أن ينظر إلينا. واشتهرت كريمة هانم فى أوساط الأسر بالخفة، وتمتعت فى حياتها بقدر لا يستهان به من الحرية، فكانت تصاحب زوجها إلى المسرح والسينما، وتحكى للنساء عن منيرة المهدية ومسرحياتها الغنائية، وطالما قالت عنها والدتى:

ـ سيدة طروب ودمها شربات ولا نهاية لنوادرها المسلية..

وكنا نرى مديحة وسامية كثيرا لدى عودتهما من مدرسة سان چوزيف بالعباسية الشرقية، كما كنا نعرف أن عثمان يتعلم فى مدرسة الفرير. ووجد فى شلتنا من ينتقد سلوك الأسرة ومنهجها فى الحياة:

ـ جمال بك أسد علينا ولكنه نعامة أمام زوجته فيرافقها إلى السينما والمسرح.

ونختلف على المدارس الأفرنجية التى ألحق بها أبناءه، فمنا من رأى فى ذلك نقصا فى الوطنية ومنا من أثنى على التعليم فى تلك المدارس، وكنا جميعا نشعر بدرجات متفاوتة من الغيرة وننفس عليهم طلاقتهم فى التحدث بالفرنسية.

باختصار كانت الأسرة موضع إعجابنا واستفزازنا. لذلك رحبنا بأن نسمع عنها ما يسىء. ولعل صديقنا عبد الخالق كان مصدر الهمس الأول بحكم جوار بيته لبيت آل إسماعيل. قال ونحن مجتمعون عند رأس الشارع حيث ملتقاه بشارع العباسية:

ـ مديحة بنت جمال بك إسماعيل هربت!

وحدقنا به ذاهلين وفى غاية من الانفعال:

ـ غير معقول!

ـ حصل، هربت مع محام شاب!

حلق بنا الخبر فى جو الأساطير وألف ليلة. وواصل عبد الخالق:

ـ ولكنه تزوج منها!

ـ ليس خبرا ولكنه لغز!

ـ لا أزيد عما سمعت حرفا.

الأسرة هى هى لم يتغير لها حال. الأب يمضى فى مهابته والأم فى دلالها وعثمان فى رشاقته وغرابته ولكن الشارع يتلقى التفاصيل والأسرار. قيل إنه تقدم لطلب يد البنت كثيرون وأنهم قوبلوا جميعا بالرفض، لم يملأ أحد منهم عين جمال بك.. هذا فقير، وذاك شهادته دون المستوى، الثالث أهله على غير ما يرام، الرابع أخلاقه كيت وكيت ـ حتى يئست الجميلة من ناحية أبيها فما إن مال قلبها إلى المحامى الشاب حتى اتفقا على الهرب والزواج ـ لم تقم حفلة للخطبة ولا للدخلة، ولم تقدم شبكة أو هدايا، ولم يتفق على مهر، ولكن الشاب أثث شقة صغيرة وبنى عشه. وبدا أول الأمر أن مديحة قد انفصلت نهائيا عن أسرتها، ولكن القطيعة لم تدم طويلا، وتوسط أهل لخير فرجعت الأمور إلى مستقرها وخفقت القلوب بالحب والرضا..

وبعد انقضاء حوالى عام ما ندرى إلا وعبد الخالق يقول ضاحكا:

ـ سامية بنت جمال بك هربت مع ضابط جيش..

وشاركناه الضحك هذه المرة..

ـ البك الغبى لا يريد أن يتعلم..

ـ إنه ولا شك مجنون.

وكررت حكاية سامية حكاية مديحة. الهرب والزواج وبناء العش والقطيعة ثم الرجوع إلى المستقر والرضا كأنما كانت الأسرة تخلق تقاليد

جديدة للحب والزواج. غير أن شائعة غريبة تمطت فى الشارع، دعمها عبد الخالق وعم فرج بياع الدندورمة والحلوى، وصادفت هوى شاملا لتصديقها، قيل إن حوادث الهروب لم تقع مصادفة ولكنها جاءت نتيجة تدبير حكيم من جمال بك إسماعيل، ليزوج كريمته دون أن ينفق مليما، لا عن بخل، ولكن لأنه كان ينفق مرتبه كله على رفاهية أسرته والمظاهر الجذابة دون أن يعمل حسابا لغد. لم يستطع أن يدخر نقودا أو يقتنى ملكا، فدأب على رفض الخطاب حتى اضطر مديحة وسامية إلى الهرب وتم له ما أراد. كلام قيل وصدق، ولا يعز على التصديق خبر ردىء. ثم إنه لا دخان بلا نار. وعلى أى حال كنا نعيش فى جو يقطر كذبا وادعاء. كل فرد يروى الأساطير عن أسرته وتاريخها. كل أسرة يتسلل أصلها من منبع عريق كان له شنة ورنة على عهد محمد على أو المماليك أو عهد الرسول نفسه. أما أكاذيب النساء فحدث عنها ولا حرج، وهى تقبل دون مناقشة وإن انحشرت فى الحلق كالشوكة. ولذلك ما إن تنفجر إشاعة مسيئة كإشاعة زواج مديحة وسامية حتى تقابل بالتصديق والارتياح الخفى. أما نحن المراهقين أو شبه المراهقين فكان الجانب الجنسى هو الذى يثير اهتمامنا. انتهاء الهروب إلى الزواج خيب آمالنا وفتر خيالنا وشتت أحلامنا. وددنا لو تقلد الحياة الفن ولو مرة وأن نشهد تمثيلية من تمثيليات يوسف وهبى فى شارع الرضوان. ويجرى الحوار المحموم بيننا:

- هل تظن أنه لم يحدث شىء قبل مجىء المأذون؟

- البنت القادرة على الهرب قادرة على كل شىء!

- تخيلوا ذلك الجمال النادر عندما تجرد من ملابسه.

وماذا تتخيل إن لم نتخيل ذلك! لم ينج أحد منا من سحر مديحة أو سامية أو كلتيهما معا. وكان غيابهما من شارع الرضوان مثل كسوف الشمس أو خسوف القمر، وهيهات أن يسلى عنه الخيال أو قراءة

الأشعار الحزينة. لم يبق لنا من آل إسماعيل إلا كريمة هانم وكان حجمها يخيفنا، وجمال بك الذى يتبادل معنا نفورا ثابتا، وأخيرا عثمان المثير لإعجابنا واستفزازنا وسخريتنا إذا وقفنا اللعب حتى يمر شكرنا قائلا:

ـ مرسى مسيو.

فيفجر بعد ذهابه عاصفة من السخرية، وكان يدعو أصدقاء متفرنجين مثله ويجتمع بهم فى منظرة البيت. وكان بينهم عازف بيانو يتقن عزف المقطوعات الإفرنجية فكان يترك فى نفوسنا أسوأ الأثر والغضب. أجل كنا نتطلع إلى الفرنجة فى نواح أخرى فنقرأ الأدب الغربى المترجم، بل حاولنا أن نتعلم الرقص وخاصة الشارلستون والطانجو، أما الموسيقى فلم يكن من الميسور هضمها. وفى رمضان لم يكن عثمان يبالى أن يسير والسيجارة فى فمه. وقالت لى أمى:

ـ كريمة هانم لا تصوم أيضا..

ـ وجمال بك؟

ـ لا أدرى ولكن المعقول أنه يصوم.

وتذكرت مساحة بطنه التى تشبه خريطة آسيا فلم أصدق أنه يصوم. المهم أنه فى أوائل الثلاثينات ـ وكنا فى ختام المرحلة الثانوية ـ سافر عثمان فى بعثة إلى فرنسا وبعد أشهر دهمنا خبر فظيع وهو أنه اضطر إلى إطلاق الرصاص ليسترد نقوده التى خسرها على مائدة قمار وأنه ألقى القبض عليه. لم نستطع أن نتصور تطور تلك الشخصية البالغة الرقة والتهذيب من العذوبة اللانهائية إلى الجريمة. وخفق قلب شارعنا رغم كل شىء. ثم وردت الأخبار بأنه قضى عليه بالسجن عشر سنوات فى جزيرة الشيطان. يا للهول!.. عثمان جمال إسماعيل فى جزيرة الشيطان! إنها الجحيم كما رأيناها فى فيلم بسينما أوليمبيا فكيف يتحملها الفتى الهش الرقيق؟ ولم تعد كريمة هانم ترى فى الطريق. أما

جمال بك إسماعيل قد غامت نظرة عينيه البراقتين وثقلت خطاه بالهوان. وقيل إنه استشفع بإسماعيل صدقى رئيس الوزراء ولكن ماذا تجدى الشفاعة أمام القانون الفرنسى؟! وسمعت أمى تقول ذات يوم بتأثر شديد وهى راجعة من زيارة آل إسماعيل:

ـ عينى عليك يا كريمة هانم.. ذبلت عيناك من البكاء.

ولكن المأساة لم تستمر كالجرح الذى لا بد أن يذبل فبلغت ذروتها بوفاة البطل السجين. وغيرت المأساة من حياة الزوجين فكانت الوداع لحياة السرور والضحك. وما ندرى يوما إلا وهما يسافران معا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وفى أثناء الحرب العظمى الثانية رأيت كريمة هانم فى مخبأ الشارع الذى كان يجمع بين أهل الحى كل ليلة. رأيتها فى ملابس البيت وقد تخلى عنها لحمها ورواؤها وعلتها أمارات الكبر.. وعند نهاية الحرب هاجرت الأسرة إلى مصر الجديدة فلم تقع عينى على أحدهما بعد ذلك حتى اليوم. وتتابعت الهجرات من شارعنا إلى الأحياء الأرقى، وشق شارع أحمد سعيد وسط الحقول فسرعان ما اختفت الخضرة والأزهار وحلت محلها فى الأرض الفضاء الخردة ومخلفات الحرب. وفى الخمسينات ـ وأنا موظف بالأوقاف ـ رأيت ذات يوم سامية تمضى بصحبة كهل نحو حجرة مدير الأوقاف الأهلية. رأيت أمامى صورة طبق الأصل من كريمة هانم على عهد النضارة والجمال. وقد التقت عينانا فى نظرة خاطفة، وأعتقد أن التذكر تبادل حوارا صامتا بين عينينا ولكنه كان كافيا من ناحيتى لإحياء عشرة طويلة من الماضى الجميل.

آل مـــــراد

يقوم بيتهم فى نهاية الشارع من ناحية بين الجناين فى ذيل الجانب الآخر من الشارع فهو يواجه بيت آل إسماعيل . صديقنا من هذه الأسرة هو آخر عنقودها عبد الخالق . وكان يقيم فى البيت مع أخت وأخوين ، أما الشيخ مراد أبوه ، وكذلك أمه ، فقد توفيا منذ سنوات وهو ما زال طفلا . وبترتيب السن كان محمود هو الأكبر ورتيبة تليه ثم أحمد ، وتفصل سنوات غير قليلة بين أحمد وصديقى عبد الخالق ، وكانت رتيبة تقوم فى البيت بوظيفة الأم خير قيام . وقال لى عبد الخالق إن أخويه موظفان وأنهما قررا ألا يتزوجا حتى تتزوج أختهم رتيبة . ورغم بساطة الحال والمظهر لم أعرف فى حياتى شخصا فخورا مثل عبد الخالق . يحدثنا كثيرا عن أبيه الشيخ مراد وكيف كان من شيوخ الأزهر الخالدين ، وأمه سليلة مجد عريق وأن أباها مذكور فى تاريخ الجبرتى ، وكان يذكر أخويه محمود أفندى وأحمد أفندى باعتبارهما من موظفى الدولة المهمين . وعرفت الحقيقة بفضل بقية الأصدقاء والزمن والشارع ، وعرفت أن فخره لم يكن على غير أساس دائما . أجل كانت أسرته الغصن الوحيد العارى فى شجرة مورقة بالمجد والثراء . عمه كان يوما مفتى الديار المصرية ومازال وقتذاك عضوا فى هيئة كبار العلماء ، إلى مواقف مشهودة تذكر له فى ثورة ١٩١٩ . وخاله كان فى تلك الأيام النائب العام وما أدراك ما النائب العام . وثمة خال آخر يعد فى الصفوة المختارة من تجار البلد . إذن ففخره لم يكن بلا أساس يعتمد عليه ، ولكنه كان يغالى فيه لدرجة جرت عليه بعض السخرية . وكان ينتهز فرصة نشر أى نعى خاص بأسرته لكى يتلوه علينا بالأسماء المدوية

المذكورة فيه، ولكننا لم نشهد يوما أحدا من أولئك الرجال العظام وهو يزور بيت صديقنا المنعزل فى شارع الرضوان. وعرفت بعد ذلك حقيقة أخويه الموظفين، فإذا بهما من صغار الموظفين، محمود أفندى بالابتدائية، وأحمد أفندى بالكفاءة. وكان عبد الخالق ذا وجه مستدير وشعر أسود عميق السواد، وأنف أفطس، وعينين مستديرتين صغيرتين. وكان هو ومحمود أفندى ورتيبة ثلاث صور متقاربة لا تمت للجمال بأى صلة، بخلاف أحمد أفندى الذى انطلق بقامة ممشوقة ولون ضارب للبياض وقسمات متناسقة جذابة. وكان طبيعيا أن يؤجل الأخوان زواجهما حتى تتزوج رتيبة، وحتى ينتهى عبد الخالق من مراحل تعليمه التى تعثرت خطاه فيه ولم تبشر بأى فلاح مرموق. كان الفقر يخيم على الأسرة ويطمس معالم مستقبلها، وربما كانت رتيبة مشكلتها الأساسية لفقرها وجهلها وحرمانها القاسى من الجاذبية والجمال. ورغم ذلك فهى لم تستسلم للانزواء والانطواء، وترددت على أسر الشارع فى زيارات انفرادية ـ متجنبة أيام الزيارات المعروفة ـ لتتفادى الوجود فى مجتمعات السيدات بملابسها البسيطة المتواضعة، ولتلقاهن كذلك فى بيتها منفردات فلا تكلفها الزائرة أكثر من فنجان القهوة. وكانت محور الخدمة فى بيتها، فلم يشعروا بفقد الأم ولا بافتقاد الزوجة، وراحت تتقدم فى السن عاما بعد عام فى جو من الصمت والقلق. لا شك أن أحمد كان أسعد أعضاء الأسرة، يسير بالشارع تياها بمنظره فيجذب أنظار البنات والنساء ويوزع نظراته على النوافذ والشرفات مغلفة بالحذر الواجب. جعل من فن الحب مهنته ولم يخب مسعاه فحرره الحب من البيت الكئيب بما يشبه المعجزة. أحبته أرملة غنية تماثله فى السن وعرضت عليه زواجا يناسب حاله أى بدون تكاليف تذكر وانزعج أخوه الأكبر محمود وقال له إنه سيتركه.وحيدا فى السفينة الجانحة ولكنه طمأنه ووعده بأنه سيفيض على أسرته مما سيفيض به الله عليه. وتزوج من الأرملة، وانتقلت به إلى المعادى، كأنما لتستأثر

به بعيدا عن أهله. والحق أنه لم يستطع أن ينجز وعدا من وعوده الخلابة، وكاد ينقطع تماما عن أسرته تحاشيا للمشاحنات ووجع الدماغ.
وساءت حال الأسرة أكثر وبلغ اليأس أقصى مداه بمحمود ورتيبة، أما عبد الخالق فنتيجة لفشله المتكرر فى الدراسة التحق بالتجارة المتوسطة بالابتدائية. وانتهى من دراسته المتواضعة قبل أى واحد منا، وبوساطة عمه أو خاله التحق بوظيفة صغيرة بالمعارف. وبحلول الثلاثينات نبذ محمود أفندى فكرة الزواج تماما يأسا وعجزا ومضى ينحدر نحو سن المعاش، ورتيبة جاوزت الثلاثين بخمس واستسلمت لليأس، وآمن عبد الخالق بأنه يسير فى نفس الطريق. ولكن كان ثمة مفاجأة فى الغيب فقد جاء أولاد الحلال بعريس لرتيبة. فى الخمسين من عمره كان وحيدا وعلى شىء من الثراء والمرض، ولعله كان فى حاجة إلى الخدمة أكثر من أى شىء آخر. هكذا تزوجت رتيبة قافزة فوق اليأس والظنون، واستقرت أيضا فى بيتها الجديد، وأنجبت قبل فوات الفرصة ولدين أتيح لى أن أرى الأكبر ضابط شرطة والآخر ضابط جيش، وصادفتهما كثيراً فى أطوار من العمر فى بيت عبد الخالق فكانا يناديانني بقولهما «يا خالى» أسوة بخالهما عبد الخالق. والحق أن صادقتنا مع عبد الخالق صمدت للزمن قوية رغم اختلاف المشارب والمذاهب، يحفظها الشارع والمقهى والذكريات. واستقبلنا الحرب العظمى معا، وجمعنا المخبأ كل ليلة، وطالما ناقشنا التغيرات النامية حولنا فى الناس والأحوال والأسعار. وكان من السهل ملاحظة الحب الجامح الذى يكنه صديقى لأهله عامة ولابنى أخته خاصة، شأن الأعزب المحروم من ممارسة العواطف الحميمة. وأيضا لتطلعه الطبيعى الساذج نحو نفوذ الشرطة والجيش يغطى به هوانه كموظف صغير ضائع بلا مستقبل يعتد به.
ولكن سوء الحظ كان يرصده من حيث لا يدرى. ففى الفترة الحرجة التى أعقبت الحرب استولت مبادئ الإخوان على ضابط الشرطة، وفى

خضم الصراع بين الإخوان والسلطة انكشف أمره فى مطاردة مثيرة وقتل برصاص الشرطة! قتل الجنود ضابطهم، ولم أعرف هذه الحقيقة إلا من عبد الخالق نفسه، بخلاف ما نشر فى الجرائد من أنه قتل برصاص الإخوان فى المعركة. وأرسل عبد الخالق لنا كلمة مكتوبة يحذرنا فيها من شهود سرادق المأتم خوفا أن نجر بسبب ذلك إلى التحقيق.

وقال لى فيما تلا ذلك من أيام:

ـ حتى بيتنا فتشوه..

وراح يتمتم بنبرة باكية:

ـ إنه حظى الأسود!

لم أعرف بين أصدقائى من كان يقارب عبد الخالق فى عمق أحزانه أمام الموت، ووكان يفوق فى ذلك النساء أنفسهن، كما لم أعرف أحدًا يماثله فى شدة تعلقه بأسرته. أما خاصيته الأخرى فهى إدمانه لشراء أوراق اليانصيب وبخاصة يانصيب المواساة أو سباق الدربى العالمى. وكانت أسعد أوقاته هى ما تمضى بين شراء الورقة وظهور النتيجة، حينما يستسلم لعذوبة الأحلام، فى مباهجها الأساسية، القيللا والسيارة والمائدة والعروس. وأحيانا يقول لى متحسرا:

ـ يا لخسارة النظرات الضائعة فى الهواء!

فأسأله عما يعنى فيقول:

ـ الجميلات فى النوافذ..

ويحكى عن بنات العباسية، كيف يطاردهن بنظراته الجائعة، وكيف يستجبن بأدب منتظرات الخطوة التالية التى لا تجىء أبدا.

ـ العين بصيرة واليد قصيرة..

فأقول ضاحكا:

ـ ربما يخبىء لك الدهر حظا كما خبأه لأخيك أحمد!

فيقول محتجا :

ـ لا تذكرني بالوغد!

كان عبد الخالق متدينا من نوع ما، يحافظ على صلاته وصيامه ويكثر من الدعاء لعل وعسى. ولكنه لا يتردد فيسكر ليلة الجمعة متجرعا أرخص أنواع الأنبذة بشارع محمد على ثم يذهب مترنحا إلى درب طياب. ويتغنى إذا سكر :

الحمد لعلام الغيب.

القادر على أن يملأ جيبى.

وآخذ من الدنيا نيبى.

وأتزوج بفرنسية.

وعلى نقيض شلتنا لم يعرف الانتماء إلى الحركة الوطنية. وبامتعاض يقول :

ـ كلهم مهرجون، ماذا فعلوا للبائسين؟!

وتحمل الأصوات على الاستعمار والأجانب فيقول ساخرا :

ـ السياسيون يقاسمونهم الخيرات ويضحكون علينا بالخطب.

ولا سبيل إلى تغيير رأيه، ولعله الوحيد ـ أو أحد اثنين ـ في شلتنا كلها الذى قبع في قوقعة محكمة من الأمية العقلية، فلم ينظر طوال حياته في كتاب أو مجلة ـ عدا المقررات المدرسية، ولم يستطع أن يفرق بين العقاد المفكر والعقاد التاجر بالسكة الجديدة ـ واكتشفنا في زمن متأخر نسبيا أنه يعتقد أن النيل مرادف للنهر، فيوجد نيل في إنجلترا ونيل في العراق إلخ. وكان يغلب عليه الوجوم والكآبة فلا يضحك ويغنى ويرقص وينبسط إلا إذا سكر. وجرى الزمن حتى أقبلنا على الأربعين من عمرنا، وعند ذاك فاجأنا الجيش بانقلابه في يوليو ١٩٥٢. ورحنا نضرب أخماسا في أسداس كما يقولون وإذا بعبد الخالق يقول :

ـ أى حركة خير من الكرب الذى نعانيه.

وسرعان ما تبين له أن ابن أخته الباقى من ضباط الصف الثانى المقربين. وكاد يطير من الفرح، واهتم بالسياسة لأول مرة فى حياته، وراح يقول لنا ضاحكا بغير سكر:

ـ إذا لم يقسم لنا أن نكون من الأمراء فنحن من النبلاء!

وآمن عبد الخالق بأن ورقة يا نصيبه قد رحبت أخيرا وأن الدنيا مقبلة على أجنحة الملائكة. وسألته:

ـ متى تجىء الترقية؟

فقال بحبور:

ـ قال لى ـ ابن أخته ـ إن الترقية فى الوزارة كثيرة الصخب قليلة الثمرة، ولكنه سيبحث لى عن وظيفة فى شركة وبمرتب خيالى..

ولم أعد أرى الضابط الشاب فى شارعنا، ربما لانغماسه فى واجباته الجديدة، وكان يزور خاليه أحيانا مستترا بالليل فيطمئن عليهما ويعدهما خيرا ثم يذهب دون أن يدرى به أحد. وقد صادفته ذات صباح وأنا ذاهب إلى عملى وكان يغادر دار الإذاعة بشارع الشريفين إلى سيارة عسكرية تنتظره. هممت بالسلام ولكنه مضى وكأنما لم يرنى. اندلق على جردل ماء بارد. لا يمكن أن يتجاهلنى. إنه فى شغل شاغل بأفكاره فلم يرنى. ولكن لشد ما تغير فى أيام معدودة. تلبسته هيئة عظمة لا أدرى من أين جاءته. ومضى وكأنه صاحب الأرض ومن عليها. وتذكرت بذهول تواضعه وبساطته وعذوبته وسذاجته الثقافية. وخطر لى خاطر، أن أولئك الضباط فى ثورتهم يمثلون مصر المقهورة فى معاناة مشاعرها بالنقص، ولكن يخشى أن ينقلب الأمر فى ذواتهم إلى مركب عظمة ولا يجدوا من يمارسونه عليه إلا المصريين التعساء! المهم أن عبد الخالق كان يعيش فى سراب. وبدأت المأساة بصداع متقطع ينتاب

الضابط الشاب فى رأسه، ثم يشتد ويستفحل، وينجلى الفحص عن اكتشاف ورم بالمخ. وسرعان ما حملته طائرة إلى إنجلترا لإجراء جراحة عاجلة وخطيرة. وبسرعة غير متوقعة أسلم الشاب الروح. أما الحزن الذى حاق بعبد الخالق فمما لا ينسى أبد الدهر. بكى ولطم كالنساء. وأغمى عليه مرتين فى منظرة بيته ونحن نقدم له واجب العزاء. والحق أننا قدرنا حزنه وحاله فشاركناه ألمه من صميم قلوبنا. ومضى وقت طويل وهو عائش فى مأساته. وكان يقول:

ـ أى حظ هذا! حدثت معجزة من أجلى فانظروا كيف انتهت..

ويشرد طويلا ثم يواصل:

ـ انظروا إلى حظ الآخرين..

وراح يحصى المحظوظين.. من ضموه إلى لجنة جرد القصور الملكية وما أدراك ما الجرد، من رقى فى وزارته وفاق نفوذه وكيل الوزارة، ومن.. ومن..

ـ حتى جاء دورى فحصل انقلاب للانقلاب..

ونصحناه بأن يستشفع بزملاء ابن أخته من الضباط ولكن لم يسفر المسعى إلا عن ترقيته إلى الدرجة السابعة. وواصل حياته التعيسة برفقة أخيه الأتعس. ولما مات أخوه فى الستينات باع البيت. وتزوج بنصيبه أرملة فى منتصف الخمسين كانت أما لفتاتين متزوجتين، وأقام معها فى السكاكينى ولم ينجب. وهدأت أعصابه بعض الشىء بتقدم العمر وسلم بالأمر الواقع، وازداد تدينا وأملا فى الآخرة، ولم ينقطع عن المقهى وأصدقائه قط. وفى الثمانينات توفى بفشل كلوى وهو ابن سبعين بعد حياة مفعمة باللهفة والحسرة والإحباط، طاوية ذكرياتها الجميلة فى ماض بعيد لم يكد يبقى من معالمه شىء.

* * *

آل القــــربى

تقوم سراى آل القربى فيما يلى بيت آل مراد. سراى كبيرة مترامية، ينطلق النخيل متجاوزا أسوارها العالية، وتشغل مساحة واسعة بطول شارعنا وفى العمق المفضى إلى شارع أبو خودة. تلوذ بعزلة صارمة عما حولها، وتغوص فى غموض شامل كأنها تاريخ قديم بلا وثائق، فلا أحد يعرف شيئا عن الأصل أو الأقارب، وأهل السراى لا يزورون ولا يزارون بخلاف أغلبية السكان الملتحمة بالجيرة والتزاور والمودة. ولم نر من أهلها سوى ربها إحسان بك القربى وابنه الصبى عمرو. كما كنا نرى البواب والحوذى والطاهى ومديرة السراى أمام الباب فى العصارى.

وكان البك يغادر السراى مرة واحدة يوميا عند الأصيل، على قدميه غالبا، وفى الحنطور نادرا، ثم يعبر شارع العباسية متجها نحو الشرق لقضاء سهرة فى أحد القصور. كان بدينا مع ميل إلى القصر، ضخم الخلفية مثل امرأة، طويل الطربوش ريان الوجه ثقيل الملامح، يرى العالم من خلال نظارة كحلية اللون ويقبض على مذبة عاجية. كان بطىء الحركة، بارد النظرة، كأنه ناهض من نوم أو ماض إلى نوم، ويمضى غير منتبه لما حوله. وكان عمرو من سننا، ولكنه لم يشجع أحدا على التعرف به ولم يسع إلى التعرف بأحد، وكان يظهر أمام الباب قليلا، وأغلب فراغه يقضيه فى الحديقة، وكان صورة مصغرة من أبيه لولا جحوظ فى عينيه. وكنا نفضل جمال بك إسماعيل على إحسان بك رغم تأديبه المتلاحق لنا، فهو مثير وباعث على الضحك ولا وجه للمقارنة بينه وبين هذه الكتلة اللحمية الباردة الصامتة فضلا عن المكانة

المرموقة التى استحقها جمال بك لإنجابه مديحة وسامية. ورغم ذلك فقد رسمنا للأسرة صورة، أمدنا الخيال ببعض خطوطها وعم فرج بالبعض الآخر. قال صديقنا عبد الخالق:

ـ اسم القربى فيه الكفاية هو نسبة إلى القربة، فجدهم كان ولا شك سقاء، وبشرتهم كما ترون لا تشى بأصل شركسى أو تركى أو حتى شامى..

أما عم فرج بياع الدندورمة والحلوى فقد اقتحم بحديثه أسوار السراى إلى الداخل وقال:

ـ ليس فى السراى امرأة سوى نفوسة كبيرة الخدم.

وأكد لنا أن الهانم توفيت عقب ميلاد عمرو، وقبله بسنوات عديدة أنجبت موسى بك الذى يعمل اليوم فى السلك السياسى. وتناسينا آل القربى بلا اكتراث حتى شدوا انتباهنا فى الثلاثينات بواقعة استفزازية خلقت لهم فى القلوب كراهية ثابتة. فقد دعا البك إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزراء فى الثلاثينات، إلى مأدبة عشاء فى سراياه. كان الباشا فى ذلك الوقت دكتاتور مصر ومعذبها وأبغض خلق الله إلى قلبها. ومنذ عصر ذلك اليوم انتشر المخبرون فى الشارع والحى كله، وصادروا أى تجمهر لأبناء الحى حتى اضطررت لمشاهدة ما يجرى من نافذة بيتنا. وجاءت قوة من الشرطة واتخذت مواقعها فى الشارع بكامل أسلحتها. ومضى المدعوون يحضرون فى سياراتهم ويدخلون السراى تباعا. وأخيرا جاءت سيارة رئيس الوزراء، ووقف المدعوون وعلى رأسهم إحسان بك القربى لاستقبال الرجل، ولمحته وهو يغادر السيارة إلى السراى. وامتدت السهرة حتى نهاية الثلث الأول من الليل ثم غادر الجمع السراى فى مظاهرة من السيارات بين صفين من الجنود المسلحين. وانتشر الخبر فى الحى كله كالنار المندلعة، وجرى اسم القربى على الألسنة مصحوبا باللعنات.

وتراجع البك إلى جحر عزلته وغموضه حتى شد انتباهنا مرة أخرى فى تاريخ لاحق لم أعد قادرا على تحديده. ما ندرى ذات نهار إلا ونفوسة كبيرة الخدم تغادر السراى ملتفة فى ملاءتها اللف وهى تسب وتلعن قلة الحياء. ماذا حدث يا ترى؟ ومن يكون قليل الحياء؟

وعلق أحدنا قائلا:

ـ المرأة ليست شابة ولكن بها رمق ولا شك!

ورجعت المرأة بعد حين بصحبة شرطى فدخلا السراى معا. وبلغت بنا الأشواق منتهاها، واستخفنا السرور. وإذا بركب يخرج مكون من المرأة والشرطى وإحسان بك القربى فيتحرك نحو قسم الوايلى.

ـ يا ألطاف الله!.. البك نفسه!

ـ لم لا؟

ـ وما دخل الشرطة؟

ـ طمعت المرأة فى قرشين!

ولم نعرف مزيدا من الحقيقة حتى تكلم عم فرج. والله وحده هو المطلع فلم أدر حتى اليوم أين يقف الخيال وأين تبدأ الحقيقة؟ قال عم فرج إن البك فاجأ المرأة برغبات شاذة فغضبت لكرامتها وأبت إلا أن تشكوه فى القسم. وقال الرجل:

ـ تحولت المسألة إلى قضية وربنا يستر..

أشعلت القضية اهتمامنا وأثارت خيالنا وحركت مكامن الجنس فى نفوسنا. وزاد عم فرج فقال إن العلاقة ساءت قديما بين البك والمرحومة زوجه لميوله الشاذة. ورأينا الرجل يرجع إلى أسلوب حياته اليومى. يذهب ويجىء دون مبالاة وكأن شيئا لم يكن. ماذا حدث؟ هل ينتظر محاكمة؟.. هل عجزت المرأة عن إثبات التهمة؟.. هل تم اتفاق من نوع ما؟.. هل تدخلت جهات عليا لصالح البك؟.. أفلتت الحقيقة منا

تماما، وعادت الحياة إلى روتينها المألوف، وحلت خادم جديدة محل القديمة. وأتم عمرو تعليمه معنا على وجه التقريب فى تاريخ واحد، وألحق كأخيه بالسلك السياسى. وبعد قيام الحرب العظمى بقليل غادر البك الحى إلى مكان آخر، فلم أسمع عنه أو عن ابنيه أى خبر. ولبثت السراى مغلقة حتى بيعت قبيل الخمسينات، وشيدت مكانها أربع عمارات.

* * *

آل الجمحى

بيتهم يقع مباشرة لصق آل جمال إسماعيل، وهو بيت عامر بالسكان. . عبد الرحيم بك رب الأسرة، وحسين ابنه وصديقنا، وزوجة وبنات لم يرهن أحد ولم يعرف عددهن أحد من شدة غلظ السياج المضروب حولهن. وعبد الرحيم بك الجمحى من عرب الفيوم وأعيانها، ولسبب ما عهد بأرضه إلى إخوته وهاجر إلى القاهرة فشيد بيته فى شارع الرضوان واستقر. لم ير وجه من حريمه فى نافذة أو باب، ولا وجد حاجة لعرض بناته على الأسر، إذ كن مخطوبات منذ المهد لأبناء عمومتهن، ولم يسمح لزوجه بزيارة أسرة من الأسر إلا بعد التأكد من بعدها عن «الفرنجة»، فكان من حظى أن أرى زوجته وأنا فى صباى الأول، وأتملى لونها الأبيض وقسماتها الجذابة ولهجتها العربية الريفية الممتعة، أما فى المجىء والذهاب فكانت تتسربل بالسواد كأنها جوال فحم. وكان للرجل هيبة وعنجهية وصرامة وقوة عمل لها كل إنسان ألف حساب وحساب. كان قوى الجسم كمصارع محترف، غزير

الشارب، غليظ القسمات، وبه حول شديد، منفر الصورة، يقبض فى سيره على عصا غليظة أطول منه، ويضرب الأرض بقدم ثقيلة وهو يندفع بعباءته وعمامته. وذاع ـ ولا أدرى كيف ـ أن الرجل قاتل له أكثر من ضحية فى بلده. وخطر لنا ذات يوم أن نسأل حسين عن صحة ما يقال فقال بأبهة:

ـ قتل أبى أربعين رجلا!

فرأيت فيه رمز الموت وشبحه وخفته بقدر ما كرهته، وآمنت بأن العدل لن يتحقق على الأرض حتى يقتل هذا الرجل.

وعلى أثر انصرافه من زيارة لأبى قلت لأبى:

ـ يقولون إنه قاتل..

فقال ببساطة:

ـ ولماذا نصدق ما يقال؟.. الحق أنه شهم وجار أمين..

ونشأ حسين مثل أبيه فى القوة والشراسة والصورة. إذا غضب ضرب، ولا يجرؤ أحد على مواجهته. ولكنه فى حال الرضا كان مثال الكرم والمودة. وطالما دعانا للغداء وأتحفنا بالهدايا من الحلوى والفاكهة. ورغم ثرائه كان تلميذا ناجحا، ويحب المطالعة والمناقشة غير أنه بدا من أول الأمر فخورا بالعرب والعروبة، معتزاً بالطبقة، ولذلك احترم الملك وعدلى ولم يخف استهانته بسعد زغلول. نظرته إلى الأمور من فوق إلى تحت، وهو لا يداريها أو يخفيها، يثير عاصفة من المناقشات، ولكننا أخذناه على علاته، بل آمنا بضرورة وجوده كممثل لمعارضة لابد منها لتجديد حوارنا وإنعاشه. ولم نختلف معه فى السياسة و حدها، ولكن أيضا حول المرأة والحضارة الغربية والأفكار الجديدة، ولعله كان الوحيد فى شلتنا الذى يفضل الرافعى على العقاد. ولكنه اختلف أيضا مع عبد الخالق على ماشست وفانتوم فأسفر ذلك الاختلاف عن شراسته.

كـان مـاشـست وفـانتـوم من أبطال الأفـلام الذين يأسـروننا بقـوتـهم وشجاعتهم. وفاز كل منهما بفريق من المتحمسين فكـان حسين مع ماشست وعبد الخالق مع فانتوم، واشتد النقاش بينهما عن ذلك حتى غضب حسين الجمحى. وإذا به يقبض على عنق عبد الخالق ويقول:

ـ لو قبض ماشست على عنق فانتوم هكذا فماذا يستطيع فانتوم أن يفعل؟

وضغط على عنق عبد الخالق بحنق حتى احتقن وجهه بالدم وانحبس صوته. وخلصنا بينهما وعبد الخالق يلهث. وقاطع حسين فترة طويلة حتى صالحه بدعوة خاصة إلى الغداء. وكان بيت عبد الرحيم بك يواجه سراى آل القربى مباشرة ولكن لم يحدث أن تبادلا التحية قط. كـان إحسان بك يسير كالنائم غائبا عما حوله فيستفز عبد الرحيم بك بتجاهله غير المقصود. ودأب عبد الرحيم بك، كلما مر به الآخر، أن يبصق بصوت مسموع إعرابا عن ازدرائه واستيائه فيمضى الآخر فى طريقه دون أدنى التفات. وتوقعنا أن تحدث أمور أخطر من ذلك ولكن الله سلم. واعتاد عبد الرحيم بك عند زواج أى بنت من بناته أن يقيم حفلين. . الأول فى شارعنا عند كتب الكتاب والآخر فى الفيوم ليلة الدخلة. وكان الشارع كله تقريبا ـ طبعا لا محل لذكر القربى هنا ـ يدعى للحفل. وأردنا أن نسمع العالمة ـ ونرى الحريم ـ معتمدين على حداثة سننا ولكن البك الجبار انتبه لتحركنا، واعترضنا غاضبا وصاح بنا:

ـ يا شياطين، مكانكم فى السرادق وإلا حطمت رءوسكم!

فهربنا كالفئران وصورته المتوحشة تطاردنا. وحكيت الحكاية لأبى فى اليوم التالى فقال ضاحكا:

ـ إنه يعتبركم رجالا، وما أهمية العالمة ولديكم صالح عبد الحى فى السرادق؟!

وظلت الأسرة محافظة على تقاليدها حتى اضطرتها الحرب العظمى إلى اللجوء إلى المخبأ مثل الآخرين. فى ذلك الوقت كانت البنات قد تزوجن، وكان حسين قد أتم دراسته الزراعية وسافر فى بعثة إلى أمريكا ولم يبق فى البيت إلا عبد الرحيم بك وحرمه. اضطر الرجل أن يجىء بها معه إلى المخبأ الذى يتساوى تحت سقفه عم فرج مع القربى بك. وكانت حرم الجمحى تجىء متلفعة بعباءة ولا يظهر من معالمها شىء. واشتدت الغارة ذات ليلة مشهورة فتناثرت الأعصاب وصوتت النساء. وفقد عبد الرحيم بك أعصابه كذلك واندفع يضرب سقف المخبأ بعصاه فى حالة هستيرية، وصرخ فى النساء بلا وعى:

ـ هس.. ستحطم عصاى رأس من أسمع صوتها!

ولم يعد يسمع إلا أصوات المتفجرات ودوى القنابل المضادة ولم يفكر أحد فى مؤاخذته أو معاتبته فى تلك الليلة الليلاء.

ورجع حسين دكتورا فى أوائل الحرب وشغل وظيفة فى وزارة الزراعة، وعاد إلى عهده القديم فى صادقتنا وإن لم تغير الرحلة من موقفه فى الحياة بصفة عامة، ظل على محافظته فى كل شىء عدا ميل جديد نحو الحضارة الحديثة فى مظاهرها المادية المتقدمة. وعند ذلك انتهت حياة أبيه نهاية غير متوقعة، أو غير متوقعة بالنسبة لنا. كان فى زيارة للفيوم، وعلمنا عن طريق الرواة أنه زار جزارا من معارفه وجلسا سويا أمام الدكان قبيل المغرب. وكان الدكان فى ميدان تتفرع منه شوارع، فلما آذنت الشمس بالمغيب وخلا الميدان من السابلة، إنهال الرصاص فجأة ومن نواح متعددة وبكثرة على الرجل. وفى ثوان انتهى كل شىء سقط عبد الرحيم بك قتيلا مضرجا بدمه واختفى الفاعلون. وكان للجريمة ردة فعل عنيفة فى الأنفس بالنظر إلى مكانة الرجل وجبروته. وبدأ التحقيق مع الجزار ومع رجلين تصادف قربهما من موضع الحادثة، ولكن اتفقت الأقوال على أن الأمر وقع بسرعة مذهلة

وأنهم لم يروا أحدا على الإطلاق. لم يسفر التحقيق عن شيء وقيل - والله أعلم - أن الشهادة اتفقت على قول واحد رغبة فى الانتقام من سفاح خطير أفلت من قبضة العدالة بلا وجه حق. بل قيل أكثر من ذلك إن الشرطة تهاونت فى البحث وكذلك النيابة لأن قلوبها كانت مع القتلة تلك المرة لا مع القانون!

وربما كان ما سمعنا مجرد أسطورة ابتدعت، فإن صح ذلك فلا شك أن بعض الأساطير تتفوق على الوقائع بصدقها وجمالها. وحزن حسين على أبيه حزنا كبيرا، وجعل يقول لنا:

- أود أن أنتقم لأبى، ولكن ممن؟

ويتنهد بغيظ دفين. ولما قامت ثورة يوليو تقوض بنيان عالمه كله، وأصبح بين يوم وليلة غريبا فى دنياه. . وبدأ أحرص مما كنت أتصور، فعرف منذ اللحظة الأولى كيف يضبط لسانه ويسيطر على انفعالاته، وتزوج من ابنة عم له، ومضى يبيع أرضه أو ما تبقى منها. وأقام فى بيت العباسية وارتضى مستوى من المعيشة دون إمكانياته بكثير. وأقلع عن حديث السياسة حتى مع أخص خواصه، أصبح شخصا جديدا لا يهمه من الدنيا إلا شئون أسرته ووظيفته. لبث كذلك دهرا حتى دهمتنا الهزيمة فى ٥ يونية فتعذر عليه أحيانا أن يكتم فرحه، وربما مال على محدثه وهمس:

- هل سمعت آخر نكتة؟!

ويروى النكتة بعد النكتة. غير أنه لم يسفر عن وجهه الحقيقى إلا بعد وفاة عبد الناصر، أو على وجه التحديد، بعد السماح بنقد عهده. هناك لمست مدى الحقد الذى تنطوى عليه جوانحه نحو الرجل وثورته. وما كان يمكن أن يزيد حقده لو أنه تعرض لما تعرض له غيره من الاعتقال أو الحراسة أو المصادرة، ذلك أن الحقد لم يترك فى جوفه زيادة لمستزيد.

ولا تتصور طربه عندما انتشرت إشاعة ـ لعلها لم تقم على أساس ـ بأن مياه المجارى تسربت إلى قبر الزعيم. كان يرقص طربا واقترح أن يعلقوا الجثة على باب زويلة حتى تجف! ورغم ثقافته وتعلمه فى الداخل والخارج فإنه لم ير فى ثورة يوليو إلا أنها انقلاب دبرته عصابة من اللصوص لنهب البلد باسم الوطنية ثم تركتها خرابا شاملا. وتغير حاله فى عهد السادات، وازدهر وتألق فى الانفتاح فاستقال من وظيفته واشتغل بالاستيراد وغيره وأثرى ثراء فاحشا، وشيد لأسرته قصرا فى مصر الجديدة وعاش عيشة الملوك. وفى العهد الثالث للثورة ـ عقب اغتيال السادات ـ تكشفت له حقائق الأمور كما لم تتكشف من قبل، ولم يتبع الإصلاح الجديد بالتفاؤل الجدير به، وكان آخر ما سمعت من قوله:

ـ أشك جدا فى أنه يمكن إنقاذ السفينة من الغرق، وسوف يستوى من عنده مال ومن لا مال له، ولذلك فإنى أفكر فى هجرة بلا رجعة، وهى نهاية منطقية لحركة عبد الناصر!

* * *

آل مكـــــى

وهذا بيت صابر مكى التالى لآل الجمحى مباشرة. مطرب غير مجهول الاسم، ويقيم فى البيت هو وزوجته وابنه يسرى وابنته وداد. وداد تماثلنى فى السن أما يسرى ففى المرحلة الثانوية. وكانت أم وداد وبنتها يزوراننا كثيرا فعرفتهما معرفة جيدة. وبقى فى ذاكرتى من تلك الأيام جمال البنت وضعف الأم وشكواها المتكررة من قلة الرزق وسلوك صابر. كانت تقول:

ـ كلما رزقه ربنا بقرشين أنفقها على أصحابه، يولم الوليمة ويدعو إليها كل من هب ودب ثم نعيش بعد ذلك على باب الله . .

وكان فى وجهها جاذبية ولكن يطغى عليه الشحوب والضعف . وفى ليالى الصيف كان صابر مكى يقوم بتدريباته الغنائية فى الحديقة الصغيرة الخلفية . فتترامى إلينا الأنغام مخترقة فضاء الحقول . كان صوتا حسنا ولكن صوت وداد كان أحسن . كنا ندعوها للغناء فتغنى :

ارخى الستارة اللى فى ريحنا لحسن جيرانا تجرحنا

يا مبسوطين بالقوى يا احنا

وتقول لها أمى فى انشراح :

ـ بنت الوز عوامة .

والأم فخورة بابنتها وتقول حالمة :

ـ ستكون مطربة وربنا يعوض صبرى خيرا .

أما الابن يسرى فولد ذكى وهو يحلم بأن يكون طبيبا . ونراه كثيرا فى الشارع ولكنه يترفع عن صحبتنا لانتسابه لجيل آخر، وكان صديقا لأحمد أفندى مراد شقيق صديقنا عبد الخالق . وأيضا كان يزورنا صابر مكى ويجالس أبى طويلا فى حديقتنا الصغيرة . وسمعته مرة يقول لأبى :

ـ صالح عبد الحى رجل غريب الشأن، لماذا يلقب نفسه بعبد الحى؟! . . دجال يتمحك باسم خاله عبد الحى حلمى ويتبرأ من أبيه، وبهذا الدجل تفوق علينا فى الطرب دون جدارة ذاتية!

ولم يكف عن الحنق على صالح، ونفس عليه نجاحه المبكر المكتسح . ومرة أخرى قال :

ـ جميع الأمور منحرفة فى بلادنا حتى الطرب، وها هو الشيخ على محمود يحب صوتى حب خبير ولكننا لا نحصل على اللقمة إلا بطلوع الروح . .

فيقول له أبى :

- صوتك مليح، والأرزاق بيد الله. لكنك تدخن كثيرا يا صابر أفندى. .

فيرد باستهانة :

- ولا يهمك!

وقد سجل عددا من الأسطوانات، وأحيا بعض الأفراح، ولكنه لم يذق طعم الثراء الذى يحلم به. ثم هبت عليه رياح الأحزان فضاعفت من تعاسته. بدأت بوفاة زوجته فى ولادة عسيرة. ولعلها كانت أول جنازة أشهدها فى الشارع الجديد. . ولما رأيت الأستاذ صابر وابنه يسرى يبكيان بكيت. وخيمت على خيالى صورتها وهى تتحدث أو تضحك، فتطلعت إلى نعشها متمنيا الاطلاع على ما آل إليه حالها. وآلمنى صراخ وداد فكرهت من أجلها الدنيا. ورأيت جميع رجال الشارع فى الجنازة عدا إحسان بك القربى، وكثيرين من رجال الفن. وفى الأيام المتعاقبة جعلت أرقب صابر ويسرى باهتمام، وكلما لمحت ابتسامة فى وجهيهما قلت لنفسى باستغراب هاهم ينسون. ولم تكن وفاة الزوجة خاتمة الأحزان كما تمنى المشيعون وهم يقدمون العزاء لصابر، ففى الثلاثينات تعرض يسرى - كطالب فى كلية الطب - لهجمة شرسة من الشرطة ضمن مظاهرة كبيرة، ونقل إلى مستشفى قصر العينى مصابا برصاصة فى بطنه، وسرعان ما أسلم الروح. وقصم استشهاده ظهر صابر، ويوم خرجت جنازته ودعته شرفات البيوت بالصوات والعويل، وتضاعف السخط على آل القربى لوقوع الوفاة بعد إقامة الوليمة للباشا بأسابيع قلائل. لم يبق لصابر إلا وداد. وراحت مع الأيام تنضج وتحلو ويعذب صوتها فتهفو لها القلوب والأبصار والأسماع. وعلى عهد الإذاعات الأهلية فاجأتنا بإذاعة أغنية من أغانى سيد درويش فى راديو سابو.

طربت وفرحت كأنما أنا الذى نجحت. وقلنا إنه نجاح يجىء فى وقته تماما إذ كان صابر يمضى من سيئ إلى أسوأ فى الصحة والعمل. وقررا هجر الشارع فما ندرى يوما إلا والعربة تحمل أثاث البيت البسيط وتذهب إلى المجهول.

كان يوما من الأيام الكئيبة فى العمر وخيل إلى أن شارعنا فقد ابتسامة مشرقة لا تعوض وذكريات لا تنسى. واعتزل صابر الطرب حتى إننا لم نعلم بوفاته فى حينها، ولكن وداد لم تغب عنا بروحها وإن غابت تماما بجسمها. مضت تشق طريقها كمطربة ناشئة فى الراديو وعالم الأسطوانات. وكان المعجبون بها يزدادون يوما بعد يوم. وكنت أتساءل.. ترى أين تعيش؟ وكيف تتعامل مع وحدتها؟ وهل نسيت أحزانها؟ وكيف استوى جمالها الباهر؟.. حتى رأيت صورتها فى إعلان عن فيلم قادم تتقاسم بطولته مع محمد عبد المطلب. قلت من أعماق قلبى.. ها هى لؤلؤة شارع الرضوان تتألق وتندفع فى دنيا النجاح ذات السناء والسنا. وذكرت بأسى المرحوم صابر المكى فى أحزانه وسوء حظه وعسر رزقه. وذكرت قوله لأبى مرة:

ـ هذه البنت ستخلف أم كلثوم على عرش الغناء!

وتمادت قرينة صباى فى النجاح حتى اعتلت قمة شعبية لا ترام بين جماهير الحرب العظمى الثانية، وفرحت أمى لها كثيرا وأنشأت تقول:

ـ ألف رحمة ونور عليك يام وداد.

ولكن البنت الحلوة نسيت الشارع الذى ولدت فيه والجيران الذين كانوا أول جمهورها..

وفى الخمسينات وأنا فى زيارة لاستديو مصر كانت وداد تعمل فى تصوير منظر خارجى بفناء الاستديو. كان الوقت ليلا والمصابيح تصب أنوارها على المنظر، ووداد تقف فى ثوب عرس، لتمثل الهروب من

زفاف فرض عليها دون إرادتها . رأيتها فى ثوب العرس كالفلة المتفتحة تشع ضياء وجمالا . الأرض والناس والعمال مأخوذون بنجوميتها المبهرة . ولما انتهوا من تصوير اللقطة وراحوا يعدون الكاميرا للقطة جديدة تراجعت وداد إلى الوراء قليلا بصحبة المخرج وآخرين . أمست على مبعدة يسيرة من موقفى ولكننى لم أتحرك ولم أفكر فى التحرك ولم أتصور أن تتذكرنى أبدا . وفى لفتة تلقائية تلاقت عينانا . وعبرتنى كأنها لم ترنى ولكنها رجعت إلى مركزة البصر . ولعلى فى اضطرابى ابتسمت . وإذ بها تمرق من بين الجماعة منطلقة نحوى هاتفة فى بساطة :

ـ أنت . . حقا الدنيا حلقة . . كيف حال تيزة؟!

تصافحنا بحرارة . واندفعت تسأل عن المعارف والجيران . وأجيب بما أعلم، فهؤلاء انتقلوا إلى مصر الجديدة . وهذه تزوجت ، وفلان البقية فى حياتك وهكذا . وقالت :

ـ حركت ذكرياتى الله يسمحك ، يجب أن تزورنى ، وعند أول فرصة سأزور شارعنا القديم . .

لم يحدث شىء من ذلك . لا زرتها ولا زارتنا . كانت دفعة هواء مترعة بالطيب ولكنها لم تهب إلا مرة واحدة . ولكنها بفنها كانت تعايشنا الأيام والليالى . ويدور الزمن دورة أخرى . ويجىء الخريف بعد الربيع والصيف ، وتتكرر المأساة التى يظن صاحبها أنه أول من يعانيها وقد امتد بها العمر حتى الثمانينات ، وحظيت بصحة حسنة ومال وفير ولكن لا حيلة مع الشيخوخة وتنكر الأيام وغول النسيان .

* * *

آل قيســـون

ولصق سراى القربى يقوم بيت صغير لموظف فى شركة المياه يدعى حسن قيسون. كان نساء الشارع يطلقن عليه ـ لرثاثة منظره ـ زبال أفندى. وسمعت مرة كريمة هانم ـ حرم جمال بك إسماعيل ـ تقول عنه ضاحكة إنه شحاذ إفرنجى. بدلة عتيقة مهلهلة، حذاء غليظ كأحذية الجنود، وطربوش متهدل حائل اللون، ونظرة ثقيلة زاهدة، وقسمات متنافرة. أرمل تخدمه قريبة طاعنة فى السن، ولكنه أنجب ولدين عزت ورأفت يماثلاننا فى السن ويكبراننا بالعقل. وليست رثاثته عن فقر ولكنها وليدة انضباط شديد وحرص أشد، غير أنه لم يضن على ابنيه بما يضفى عليهما المظهر اللائق. لا يزور ولا يزار ولا يرحب بتوثيق العلاقات الاجتماعية ولكنه لا يتأخر عن أداء واجب فيشيع الجنازة ويعود المريض ويترك بطاقته لدى التهنئة. عزت ورأفت كانا نجمين متألقين فى شارعنا. فى غاية من التفوق الدراسى. وقمة من البراعة الرياضية، ومكانة فريدة فى الاطلاع والثقافة، وإلى ذلك كان عزت عازف ناى ممتازا. ومن عجب ـ ورغم تقارب السن ـ كانا يلعبان فى حياتنا دور المرشد والمربى والحامى. وعزت بالذات مغرم بتقليد «شجيع» السينما فى أفلام رعاة البقر فى شجاعته وشهامته، فإذا تحرش بنا حرافيش الوايلى انبرى لهم وانهال عليهم باللكمات حتى يطلقوا سيقانهم للريح. وكانت طبقية حسين الجمحى تصطدم بآراء عزت ورأفت الديمقراطية، وكذلك تفاخر عبد الخالق بالأصول والأقارب. وكان عزت خاصة قوى الحجة آسر المنطق، وحتى من ناحية القوة فإن

حسين نفسه على قوته تجنب الدخول معه فى معركة مجهولة النتائج .
وقال لنا عزت ذات يوم :

ـ لا يكفى التفوق فى الدراسة ، ولا الانتماء فى الوطنية ، وليست الوطنية هى يحيا سعد ولكن يجب أن تكون أنت أيضا مثل سعد . .

وحدقنا به فى دهشة فواصل :

ـ الرياضة . . الفن . . الثقافة . . العمل . . هذا هو مستقبل وطننا الحقيقى . .

لم أصادف فى حياتى أحدا يقارب عزت ورأفت تفوقا وتطلعا للجديد مع الاستقامة وسمو الأخلاق . وكان لهما أثر وأى أثر فى تعلقنا بالقراءة والرياضة والفن والتطلع للمثاليات فى القيم . وكم قال لنا عزت :

ـ أعداؤنا ليسوا الإنجليز والملك فقط ولكن أيضا الجهل والخرافات . .

ولا أشك اليوم فى أن حسن أفندى قيسون انطوى على مرب فاضل وإنسان ممتاز رغم قذارة منظره بل حذرتنا الأيام من التمادى برميه بالبخل والتقتير ، فإنما كان يقتر على نفسه ليهيىء لابنيه ما يتطلعان إليه من اقتناء الكتب والمجلات والهوايات الأخرى بالإضافة إلى حسن المظهر ، وهو ما مكنه أخيرا من إلحاقهما بالطب والهندسة رغم تعذر ذلك على أبناء غير القادرين من الشعب . ففى منتصف الثلاثينات تخرج عزت طبيبا ورأفت مهندسا . وعقب ذلك بعام توفى حسن أفندى قيسون مع تحقيق رسالته وحلمه . وسافر عزت ورأفت فى بعثة إلى إنجلترا فأغلق البيت الصغير أبوابه . وانقطعت الصلة بيننا وبينهما فلم نعد نلتقط من أخبارهما إلا ما يجود به الرأى العام . وعن ذلك السبيل سمعنا عن تقدم عزت فى مجال الطب حتى صار من أساطين الطب الباطنى أما رأفت فقد تبوأ عمادة كلية الهندسة . وفى الستينات اضطررت إلى استشارة

طبية فعقدت العزم على زيارة صديقى القديم عزت قيسون. وسرعان ما عرفنى فاستقبلنى بالأحضان، وخصنى بعناية فائقة وغمرنى بإحساس إنسانى شامل. وتبسط معى فى الحديث عن الماضى، عن شارع الرضوان وإخوان الزمان الأول فتتابعت ذكريات الأحياء والأموات. ومما لاحظته أيضا أن وفديته العريقة حالت بينه وبين التفاهم الكامل مع ثورة يوليو، فاعترف بإيجابياتها ولمس بخفة السلبيات. ثم قال:

ـ ولكن أين الشعب؟.. إنه يخسر كل يوم بعضا من إيجابيته..

فقلت ببراءة:

ـ كأنما أصبحنا دولة عظمى.

فقال باسما:

ـ دولة عظمى بلا شعب تساوى صغرى!

وقد رأيته مرة أخرى من بعيد فى جنازة مصطفى النحاس، ثم قرأت نعيه المفاجئ فى نهاية عام الهزيمة المشئومة، أما رأفت فلا أدرى اليوم عنه شيئا..

* * *

آل حسب الله وفرج

البيت الصغير الثانى فى الشارع يلاصق آل مكى. دوره الأرضى فرن بلدى، والثانى شقة صغيرة، والثالث نصف شقة تفتح على نصف سطح مظلل بتكعيبة لبلاب. أما صاحب المبنى كله فهو المعلم حسب الله، ولا أعرف له لقبا أو كنية ـ وهو صاحب الفرن ومديره، ومسكنه. فى الشقة الثانية هو وزوجته وبلا ذرية على الإطلاق. وليست

صورته مما يعفى عليها الزمن، قصير مفرط البدانة ثقيل النظرة والصوت، يكحل عينيه دائما وأبدا، ولم ير أحد امرأته. يتعامل مع عماله بكفه القوية فالعمل يسير كالساعة. وعمله ينحصر فى خبز عجين السكان من شارعنا والشوارع القريبة مثل بين الجناين وأبو خودة استجابة لتقاليد ذلك الزمن التى قضت بأن تعجن الأسر فى بيوتها ثم ترسل العجين إلى الفرن فيرجع إليها خبزا ساخنا مورد الخدين نافذ الرائحة. كما ترسل إليه فى العيد الكعك والغريبة وفى المواسم الفطير رحمة القرافة المعروفة. وعرف عن عم حسب الله أنه يتعاطى المخدرات ولكنه كان فرانا ذا سمعة طيبة جدا. ومن عجب أنه لم ير أبدا خارج بيته. ومات فى أوائل الحرب فأغلقت الفرن وتغيرت التقاليد فجعلنا نشترى الخبز من البقالين والكعك من محال الحلوى.

وأما نصف الشقة فوق السطح فكان يسكنه عم فرج بياع الحلوى والدندورمة وزوجته. وقد أنجب ذكورا وبنتا واحدة ولكن لم يبق له إلا البنت. وكان رجلا خفيف الروح يعلن عن سلعته بالأغانى كعادة كثيرين من باعة ذلك الزمان، ويدعى أنه يعرف تاريخ الشارع وأهله ويروى الحكايات عن النساء والرجال. وقد زعم أن مبنى الفرن كان أول مبنى يشيد فى الشارع عندما كان متر الأرض بمليم! وكان ضحوكا بشوشا ويتعامل مع كل أسرة كأنما هو من صميم أهلها. وقد مات عم فرج قبيل الحرب فحلت ابنته بسيمة محله فى إدارة العربة. وكانت تجمع بين القوة وشىء من الأنوثة والحسن، فتزوجت من بياع فاكهة سريح. ولا أدرى كيف امتد نشاطها إلى تجارة الخردة أيام الحرب. ولما راجت تجارتها هجرت عربة الحلوى والدندورمة واكترت جراجا صغيرا فى الشارع جعلته مركزا لنشاطها وضمت زوجها لمعاونتها. وأقبلت الأيام عليها فاكترت مكانا جديدا فى الأرض الفضاء التى حلت محل الحقول وملأته بمخلفات الجيش البريطانى، وأصبحت معلمة بكل معنى

الكلمة. ومضت تتوسع فى الإثراء والتملك فاشترت مبنى الفرن وشيدت مكانه عمارة، وكررت ذلك مع بيت آل جمال إسماعيل وبيت الجمحى أخيرا، أما هى فأقامت فى شقة حديثة فى شارع العباسية نفسه. وعاصرت الثورة ثم الانفتاح الذى بلغ نشاطها فيه الغاية. وإنها اليوم عجوز ثرية، وأم لرجال ناجحين، وبالنظر إلى قوتها وحزمها ونجاحها فإن أصدقاءنا فى العباسية يطلقون عليها «مسز تاتشر»!

* * *

آل شكرى بهجت

وفيما يلى بيت حسن قيسون يوجد بيت آل شكرى بهجت. والأسرة تتكون من شكرى أفندى ونعمات هانم وسامح وأمينة. سامح يماثلنا فى العمر ويبادلنا الصداقة. وللأسرة صفة مميزة هى الثورة على التقاليد والتمرد على الزمن وإن لم يتضمن ذلك أى انحراف عن القيم الأخلاقية الحقيقية. وشكرى ونعمات يكونان رابطة تعتبر مثالا للحب والتوفيق. وهو موظف بالداخلية وهى حاصلة على الابتدائية. والرجل وسيم مهيب وهى تنافس فى جمالها حرم جمال بك إسماعيل لعلها أول امرأة فى العباسية تظهر فى الطريق سافرة بموافقة زوجها. وتقول لأمى ضاحكة:

- زعيم الأمة نفسه يوافق على السفور، وعلينا أن نسير مع الزمن..

أما أمينة فلم تستعمل النقاب قط. تمضى مع أسرتها سافرة أو وحدها إذا زارت هذا البيت أو ذاك. ولما خطبت وهى فى المرحلة الثانوية صاحبت خطيبها فى رحلات انفرادية، ولم تكترث الأسرة لتعليقات الناس، ولم تعتد أن تكترث لأقوال الآخرين.

ويقول لنا سامح لدى كل مناسبة :

ـ الناس؟! . . ما أغبى الناس!

جملة مأثورة يرددها كلما ترامى إليه رأى لأحد فى سلوكهم .

ـ نحن نعيش فى نسيج عنكبوتى من التقاليد السخيفة . .

ثم يخاطب حسين الجمحى وعبد الخالق مراد خاصة :

ـ الفارق بيننا حيال بعض التقاليد السخيفة هو أنكم تمارسونها رغم عجزكم عن الدفاع عنها أما نحن فنرميها بكل شجاعة فى صندوق القمامة . . وقد تزوجت أمينة عقب حصولها على البكالوريا . كان من رأيه أن تتم تعليمها فى الجامعة ولكنها آثرت بمحض اختيارها الحب والزوجية . على ذلك كله كان شكرى أفندى متدينا ، ويرى كثيرا أيام الجمع وهو يغادر جامع البيومى بعد صلاة الجمعة . وفى أوائل الثلاثينات أدى فريضة الحج ، واستقبلت زوجته عودته بالزينات وأقامت سرادقا أمام البيت أحيت به ليلة للإنشاد والأذكار وأطرب الشهود الشيخ على محمود بصوته الجميل فى سهرة امتدت حتى طلوع الفجر . ومن أسف أن الرجل توفى فى نفس العام عقب مرض لم يمهله إلا أيام معدودات ونشرت الأسرة نعيه معلنة الاقتصار على تشييع الجنازة . لم يكن ذلك شيئا مألوفا فى ذلك الزمان ، ولم يكن يصرف الأهل والأصدقاء عن زيارة البيت والاستماع إلى ترتيل القرآن . وذهب الجيران للعزاء فوجدوا البيت مغلقا وخاليا من أهله . ودهش الناس لحد الانزعاج ، وعجزوا عن التوفيق بين ذلك السلوك وبين ما عرف عن الزوجين من حب وتوفيق ، وارتفع النقد تلك المرة حتى بلغ كبد السماء . ولما اجتمعنا كالعادة نحن الأصدقاء قال سامح :

ـ الحزن فى القلب لا فى السرادق ، نحن لا نؤمن بهذه التقاليد ،

وماذا يفعل المعزون سوى أن يتسامروا كأنهم فى مقهى؟! . . من أجل ذلك غادرنا البيت وانفردنا بحزننا فى وقار ودون طقوس أو تمثيل . . ورغم إعجاب عزت قيسون بالمبادرات الجديدة إلا أنه قال فى شىء من الحذر :

ـ لم يكن من بأس فى أن نجالسك ذلك المساء ، فلا سخف فى ذلك فيما أعتقد على أنه استدرك بعد ذلك قائلا :

ـ على أننى لا ألومك ولا ألوم أحدا . .

أما عبد الخالق فقد همس فى أذنى :

ـ أسرة مجانين!

وحسين الجمحى همس أيضا :

ـ عليهم اللعنة ، ضنوا بإنفاق قرشين تحية لذكرى الرجل . .

أما المفاجأة المذهلة فقد وقعت بعد وفاة الرجل بعامين أو ثلاثة . كان سامح قد تخرج وتوظف وتزوج زواجه المبكر ، فما المفاجأة؟ ذاع وتأكد أن نعمات هانم تزوجت من رجل يماثلها فى السن أو يقل عنها! إنها تقترب من الخمسين . ومسلم به أنها مازالت فى صحة كاملة وجمال غير منكور ، ولكن هل يسوغ ذلك الزواج مرة أخرى؟! ويبدو أنها لم تجد من يدافع عن سلوكها فى البيوت كلها . بين المتزوجات مثلما بين المطلقات والأرامل . وكأنما فقد الزواج شريعته الدينية المطلقة . أما نحن معشر الأصدقاء فقد اتفق رأينا على تجاهل الموضوع رحمة بصديقنا العزيز غير أنه كان هو الفاتح له . قال ببساطته المستفزة :

ـ العريس فاتحنى أنا أولا مستأذنا ، والحق أننى رحبت به . .

فهتف حسين الجمحى :

ـ رحبت به؟!

ـ لم يهن على أن أتركها وحيدة فى بيتنا ، ولم لا؟ إنها جميلة وعلى

أكمل صحة وعافية، لعلى وجدت صعوبة بعض الشيء فى إقناعها ولكننى قلت إنه العقل والشرع!

فتساءل عبد الخالق:

ـ والمرحوم؟.. ألا شأن له فى الموضوع؟!

ـ المرحوم فى قلوبنا، لم يعد له شأن بحياتنا، ونحن لم نخلق الموت ولكننا مطالبون باحترام الحياة..

وسئلت على انفراد عن رأيى فأجبت:

ـ إنى أشعر بإعجاب وامتعاض..

ويمكن اعتبار سامح من مدرسة عزت ورأفت مع اندفاع بلا حدود. ومع اتجاهه إلى الدراسات العلمية فى المدرسة والتخصص فإنه برع فى الموسيقى وعشق المسرح والثقافة، ودعا بكل قوة إلى العصر الحديث علما وصناعة وحضارة، واستمد رؤيته فى الحياة من رغبة الخديو إسماعيل فى جعل مصر قطعة من أوروبا.

وعزت ورأفت يشاركانه الإعجاب بالعصر ولكن فى اعتدال، ومع الاهتمام بحضارتنا القديمة الفرعونية والإسلامية. ولم يكن ممن يعتبرون الحضارة الغربية حضارة غريبة عنا، وهى لم تسم باسم خاص إلا بسبب البيئة التى نشأت فيها، ولكنها فى الواقع الثمرة الأخيرة فى شجرة الحضارات الإنسانية التى أسهم البشر جميعا فى غرسها.

ـ فلا علم اليوم إلا علمها ولا أدب إلا أدبها ولا فن إلا فنها ولا فلسفة إلا فلسفتها..

فقال له الجمحى:

ـ أموت قبل أن أتذوق موسيقاها، هذا على سبيل المثال لا الحصر.

ـ المسألة مسألة تدريب ليس إلا، أما التراث فلا معنى له، كان ذات يوم حضارة حية متقدمة ثم تجاوزه الزمن فأمسى خرقا بالية!

إنه خواجة بلا قبعة . بسبب جو أسرته وقراءاته والمراكز الثقافية والأجنبية ، وصداقاته المتعددة للإنجليز والفرنسيين ، أما انتماؤه الوطنى فكان دون المتوسط رغم اندلاع الحركة الوطنية ، ولا أذكر أنه اكترث يوما لخلافاتنا الحزبية . وبالرغم مما أثاره من اعتراضات وانتقادات فلم يحفل أبدا بآراء الآخرين ، ولم أشهد له نظيرا فى شجاعته . وقد تخرج فى كلية العلوم واشتغل مدرسا فى المدارس الثانوية ، وسرعان ما تزوج من مدرسة متخرجة من كلية الآداب تماثله فى السن على أحسن الظنون ، واتخذ مسكنا فى شارع العباسية . ولم تفتر علاقته بنا ولا لقاءاته معنا فى المقهى . وأصبح صالونه منتدى لنخبة من الزملاء ممن كانوا على شاكلته بالإضافة إلى بعض الأجانب . وكان يضرب على البيانو بامتياز ، ويلقى محاضرات فى الجمعيات التقدمية أو يعلق على بعض الأفلام . ولكن مواهبه لم تتجاوز به ذلك القدر من النشاط .

ولما قامت ثورة يوليو راقبها بحذر ، ومضى يميل إليها مثنيا على اندفاعها فى طريق التصنيع ، واعتبر ذلك حجر الأساس فى التحول نحو الحضارة الحديثة . وفى أثناء ذلك أنجب من البنات أربعا وختم بعد فترة انقطاع بولد . أما البنات فقد تعلمن وتوظفن وتزوجن ، وأما الولد فقد التحق بكلية الطب مع إحالة سامح إلى المعاش فى السبعينات ، وكان يدخر له مفاجأة أو مشكلة لم تجر لأحد فى بال . وها أنا أرويها نقلا عنه كما رواها على فترات متقطعة تبعا لحدوثها .

كان اسم الولد شكرى كجده ، وكان وسيما رياضى الجسم ومتقدما فى الدراسة ، وكان سامح يحبه حبا فاق حبه أى شىء . ولاحظ بعينيه المحبة أن الشاب لم يعد كسابق العهد به . فتر مرحه ، ومال إلى الانطواء ، ورمق والديه بنظرات غريبة حائرة . لعلها أزمة من أزمات المراهقة ، أو قصة حب خائب . وإذا بأمه تسأله :

ـ ما لشكرى يا سامح؟ . . إنه لا يعجبنى . .

- ولا أنا، فلنعترف أنه جيل مجهول رغم أى ادعاء آخر . .

- ولكننا ربيناه على الحرية والصراحة . .

- حلمك وصبرك، إنه جيل يعانى من ذكريات الهزيمة والغلاء والمستقبل المسدود . .

- عليك أن تستدرجه إلى الكلام . .

- إنى أتوقع أن يتكلم هو!

وتكلم. غادر حجرته الحاوية لفراشه ومكتبه إلى حجرة المعيشة حيث يجلس والداه أمام التليفزيون. ضغط على مفتاح التليفزيون فأسكته، وجاء بكرسى صغير فجلس أمام والديه وهو يقول:

- ثمة سؤال يشغل بالى.

فقال سامح بشىء من الجدية.

- ولكنك أغلقت التليفزيون دون استئذان؟

- آسف، ولى عذر فى الهم الذى يركبنى.

- ليكن وإن كنت لا أوافق على هذا الأسلوب، ماذا لديك؟

- لماذا لا تصليان؟

ذهلا للمفاجأة. وخيم صمت فاندفع فيه زفيف رياح خريفية تهب فى الخارج. أى سؤال لم يتوقعا أن يسمعاه أبدا!

- ولم تصوما رمضان قط؟

ثم بنبرة أعلى:

- ولدى كل سهرة فى الصالون تقدمان الخمر وتشربانها!

كيف يجيبان؟ ليسا متدينين ولا دينيين. لا يضمران للدين شراً ولا خيرا. لا يشغل لهما بالًا. ولا فلسفة وراء ذلك، ولا يتصوران أن الله يكترث لشرب الخمر أو الامتناع عنها. الأمور تجرى بلا تفكير

ولا مشكلات. إنهما لا يؤذيان أحدا ولا يسمحان لأحد بالتدخل فى شئونهما الخاصة. ولكن المتدخل هو ابنهما الوحيد. وهو يطرح سؤاله فى حرية كاملة ولكن لا حرية لهما فى الإجابة بل ويشعران بأن الإجابة يجب أن تلتزم حدودا معينة. وتبادلا نظرة. نظرة حيرة واستغاثة. ولما طال الصمت تساءل الشاب:

ـ ألستما مسلمين؟

فقال سامح:

ـ طبعا.

ـ المسلم ليس مجرد اسم ولكنه عقيدة وسلوك.

فقال سامح بضيق:

ـ المسلم مسلم فى جميع الأحوال.

فقال شكرى بأسى:

ـ كلا.. إما أن تكون مسلما أولا.

ـ هذا رأيك؟

ـ نعم.. مذ هدانى الله إلى طريقه.

فتساءلت أمه بقلق:

ـ هل انضممت إلى التيارات التى يتحدثون عنها؟

ـ هدانى الله إلى طريقه!

ـ إنه طريق شديد الخطورة.

ـ هو طريق الله ولا يهم ما عدا ذلك.

فقال سامح باستياء:

ـ لم تحدثنا من قبل بهذه اللهجة.

ـ كنت فى غيبوبة الجاهلية..

ـ لا أقبل أن تخاطبنى بهذا الأسلوب .

ـ انظر ! طالما شجعتنى على الصدق والصراحة ، ها أنت تضيق بمن يخالف رأيك . .

ـ فليمض كل فى حياته كما يرضاها !

فقال الشاب بتصميم :

ـ غير ممكن ، قال الرسول عليه الصلاة والسلام : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان . .

لم يسمعا بالحديث من قبل فوجما وهما يتفكران فيه ثم سأله سامح متهكما :

ـ وماذا اخترت؟

فقال بتأثر :

ـ إنى حائر بين الواجب وبين البر بكما .

وتنهد سامح ، ثم قال لينهى الحديث الأليم :

ـ شكرى ، احصر انتباهك الآن فى دراستك الصعبة ، ولما تقف على قدميك افعل بنفسك ما تشاء ، أسرتنا لم تقم يوما على الإكراه أو العسف . .

وظن أنه تحاشى الزلزال كى يسترد أنفاسه . ولما انفرد لزوجه قال :

ـ إنه يتكلم مستندا إلى الدين والتراث فكيف نناقشه؟

فقالت بحيرة :

ـ لن تستطيع أن تقول له إنه مخطئ ، أو نقنعه بأننا على صواب .

ـ هذه هى مشكلة !

وضايقه موقفه المتخاذل فقال مدافعا عن كرامته أمام نفسه وأمام زوجته :

ـ لو أن لى رأيا محددا فى الدين لألقيت به فى وجهه!

وانبثق سؤال من عدم لم يطرح من قبل. ترى ما الرأى فى الدين؟! خيل إليه أنه مؤمن بالله ومؤمن أيضا بأنه لا شأن لله بحريته الشخصية، وأن الفرائض لا معنى لها، والخمر مفيدة وممتعة ما احتملتها الصحة. ولكنه مقتنع تماما بأنه لا يستطيع أن يصارح ابنه بذلك. ولم يتصور من قبل أنه سيواجه هذا الموقف الحرج.

وقال لزوجته:

ـ إنه يطالبنا بالتخلى عن أجمل ما فى حياتنا..

فحركت رأسها بالموافقة دون أن تنبس. فتساءل:

ـ كيف نستطيع أن نواصلها دون متاعب؟!

كيف يمارسان حياتهما المألوفة تحت سمعه وبصره؟!

وضاعف من همهما أنه دأب على تجنبهما تماما، فهو إما فى الكلية أو فى جامع الحى، أو فى حجرته. طعامه يتناوله فى المطبخ. إنها مقاطعة مطلقة. هما نفسهما فضلا ذلك ـ مع الألم والأسف ـ على مواجهة أخرى أليمة. إن يكن استطاع أن يتحدى ناقديه طوال حياته بلا مبالاة كاملة فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فى بيته ومع ابنه. إنها مصيبة لا تخف بمرور الزمن ولكنها تتعقد وتستفحل وتنذر بشر العواقب.

ـ كدرت صفوى عليك اللعنة..

واضطر أخيرا إلى إحياء سهراته فى بيوت أصدقائه بعيدا عن ابنه وخوفا من أن يقدم على تصرف أحمق يحرجه أمام المدعوين. وحنق على تلك التيارات المتطرفة واعتبرها غريمه الأول فى الحياة. ومضت الحياة فى ذلك الجو الكدر حتى قذفته بالمفاجأة الأخيرة. فما يدرى ذات يوم إلا وشكرى يلقى القبض عليه فى أعقاب معركة دامية مع الشرطة بتهمة القتل. أدرك سامح أنه خسر ابنه الوحيد الذى عقد به آماله.

وانطلق يبحث عن محام قدير ويدبر له المال اللازم من مدخراته وبيع بعض حلى زوجته. ورفض الشاب مقابلة والديه وأنكرهما. وفسد مذاق الحياة تماما، ومرت الأشهر السابقة للمحاكمة كأسوأ ما تكون الأيام. وتمت المحاكمة وقضى على الشاب بالشنق، ونفذ الحكم، وأسدل الستار على المأساة الدامية.

ماذا حدث لصديقى بعد ذلك؟

إنه يبذل قوته كلها كيلا يغلبه الحزن أمام الناس. يتظاهر بالتسليم بالأمر الواقع والارتفاع فوقه. ويأبى أن يرجع عن رأى من آرائه المأثورة. ولكننى شعرت طوال الوقت بأنه يغالب ألما دفينا حادا وباقيا كالظل. ويوما قال لى بنبرة ساخرة:

- الولية بدأت تصلى وتصوم وتتعلم أصول الدين فى كتاب الديانة للمدارس الابتدائية.

ولأول مرة فى أثناء ذلك العمر الطويل أشعر بأنه يكتم عنا أشياء تحاوره فى أعماقه وأنه على أى حال لم يعد الشخص الذى كان..

* * *

آل السناوى

الشيخ السناوى هو الجار المباشر لآل شكرى بهجت. إمام جامع الكومى، ولشيخوخته وورعه ذاع صيته كمصدر من مصادر البركة والخير. وكان يعيش فى بيته مع زوجة طاعنة فى السن أيضا وابن وحيد يدعى محمد وهو صديقنا. وعرفنا أن أم محمد هى الزوجة الثانية للشيخ. تزوج منها على كبر بعد أن فقد الأولى وذريتها بصبر المؤمن

المسلم أمره لله. محمد إذن وحيد أبويه مركز الرعاية والحب، ومدلل الأسرة رغم كل شيء. أقول رغم كل شيء لأنه إذا قيمناه بوجهه فهو توأم قرد. ومع أن شهادة ميلاده تقرر أنه يماثلنا فى سنه إلا أن مظهره يضيف إلى سنه الحقيقية عشر سنوات على الأقل. ورغم أن التربية الدينية تدين من يسخر من آخر لعاهة فيه أو دمامة باعتباره على أى حال من صنع الله القدير إلا أننا خرقنا القاعدة واستسلمنا لإغراء السخرية من دمامته بإفراط ملحوظ، وشجعنا على ذلك تسامحه الطيب وسعة صدره وقدرته الفذة على مقابلة السخرية بالسخرية. واحترنا فى تعليل قبحه، إذ أن الشيخ السناوى كان على قدر مقبول من القبول، وأجمعنا على اتهام أمه التى لم نرها وتحميلها المسئولية الكاملة. وحظه فى الحياة شابه وجهه، فالرزق محدود، وضاق أكثر عقب وفاة أبيه، واستعداده للدراسة فى حكم المعدوم، فلم يوفق إلى الحصول على الابتدائية، ومن نوادر سقوطه أنه سقط مرة فى امتحان الخط. وكان لاعب كرة فاشلا، غير أنه توهم دائما أنه عبقرى زمانه.

نقول له:

- ولكنك لم تجرب النجاح أبدا..

فيرد هازئا:

- وأى علاقة بين هذا وبين الذكاء؟!.. ألا تنجحون جميعا رغم غبائكم؟!

وسعى له أصدقاء أبيه حتى ألحقوه بوظيفة صغيرة بالأوقاف خارج الكادر. ولما شعرت أمه بدنو الأجل زوجته من قريبة لها عانس، قدرنا جميعا أنها تكبره حتى لو قسناه بعمره المفترض لا عمره الحقيقى، ولكنه وفق فى زواجه، وفاخرنا بفحولته الفذة، وقنع بالحد الأدنى من المعيشة صابرا، وأكرمه الله بولد قبل أن تنقطع المرأة عن الحبل. وباختلافه إلى

المقهى معنا عرف إحباطات جديدة فى خيبته القوية فى ألعاب الشطرنج والدومينو والنرد، ولكنه لم يعترف أبدا بقصوره وعلق هزائمه بالحظ وحده، فالحظ السيئ هو القدر الوحيد الذى لم يكابر فى الاعتراف به. على ذلك كله كان أكثرنا ضحكا وتهريجا وانبساطا. ومضت الحياة ممكنة دون يسر حتى قامت الحرب العظمى الثانية وهبت علينا رياح التغيير وأمواج الغلاء المتتابعة. هناك اقتحمته المرارة فصب غضبه على كل شىء. شابه فى ذلك عبد الخالق مراد، ولكن على حين كان عبد الخالق رافضا لجميع الساسة فإن محمد ركز هجومه على الحكام فكان دائما وأبدا فى صف المعارضة. اليوم وفدى وغدا ملكى، لا يهم، ضرباته دائما وأبدا مسددة نحو الجالسين على كرسى الحكم. وقال قولته المشهورة التى أثرت عنه لتكرارها:

- ستجرى الدماء حتى تبلغ الركب!

مبشرا بثورة دموية يموج بها خياله لتجتث الأغنياء والحكام من جذورهم. ولما اشتدت الغارات الجوية وأخذ المخبأ يجمعنا ليلة بعد أخرى، قلنا له:

- ستتحقق نبوءتك وتجرى الدماء ولكنها ستكون دماءنا نحن لا الأغنياء والحكام.

ونجده مشغولا عن تعليقاتنا بتلاوة آية الكرسى مستعيذا ببركتها كما علمه أبوه فى الزمان الأول. ولا أنسى انشراحه عقب حريق القاهرة وقوله باسما عن أسنانه المثرمة:

- أول الغيث قطر..

ولذلك فعندما قامت ثورة يولية، وأحدثت إنجازاتها الاجتماعية الرائعة اعتبرت معجزة مرسلة من أجل عيون محمد. وارتفعت روحه المعنوية إلى أعلى درجة.

وسأله حسين الجمحى :

ـ أى فائدة جنيتها أنت يا عم محمد؟

على أى حال قبل ابنه ـ محمد محمد السناوى ـ طالبا بالكلية الحربية الأمر الذى يعتبر معجزة فى ذاته . وتخرج ملازما ، وأصبح عم محمد والدا لضابط فى الجيش . واقتحمت الاصطلاحات العسكرية حديثه حتى اعترفنا به عضوا فى هيئة أركان حرب . وسافر محمد ـ محمد الثانى كما عرف بيننا ـ ضمن حملة اليمن . وتساءلنا ترى هل يقسو عليه القضاء ويتلاشى الحلم؟ والحق لقد دعونا للولد بالسلامة إكراما لأبيه سيئ الحظ ، ووضح لنا مدى حبنا لذاك الصديق القديم . ولكن الله سلم ، وتحسنت أحوال الابن ، وسرى اليسر إلى الأب وأسرته . وبحكم الأبوة عرف محمد الانتماء لأول مرة فى حياته ، وكان فى مقدمة المصابين بهزيمة ٥ يونية المشئومة فحزن حزنا بالغا ، وكان من حسن حظه أن ابنه لم يشترك فيها لوصول فرقته إلى مصر بعد انتهاء المعركة . وفى السبعينات أحيل محمد إلى المعاش وتفرغ للمقهى . واشترك ابنه فى العبور فى ٦ أكتوبر ، نجا من الموت ، وحظى بوسام الشجاعة ، وارتفع بأبيه إلى ذروة السعادة . اليوم يشغل الابن مركزا عسكريا مرموقا ، وينعم الأب بشيخوخة هادئة وعافية يغبط عليها . وقد أصابته نزوة مما تصيب بعض المحالين على المعاش ، فقال لنا يوما :

ـ ما رأيكم؟ . . لقد ألفت زجلا!

ودهشنا لأننا طيلة عهدنا به لم نلمس لديه ميلا لأى فن . وسحب ورقة من جيبه وراح يلقى علينا زجله . وإذا بتعليق ينفجر مصحوبا بقهقهة :

ـ اسمع يا عم محمد ، لقد عاشرنا قبحك وجنونك ، بل من أجل حبك أحببناهما ، ولكن لكل شىء حد ، فارجع عن غيك واستعذ بالله من الشيطان الرجيم . .

فقهقه بدوره قائلا :

ـ هذا حظ من يسبق زمنه!

* * *

آل الفنجـــرى

فيما يلى الفرن يقوم بيت آل الفنجرى. وأسرة الفنجرى تتكون من زوجة، وابنة تزوجت من قبل أن تنتقل إلى الشارع، وولدين هما حسن وحسين الصديقين. والفنجرى ترزى إفرنجى يقع محله فى وسط شارع العباسية، ميسور الحال، ويملك عمارتين. وحسن وحسين متقاربان فى الشبه، لهما نفس اللون الفاتح، والقسمات المتناسقة، والقامة الطويلة الممشوقة، وفيما عدا ذلك فهما نقيضان تماما. حسين وهو الأصغر مثال طيب للاجتهاد والجدية والتفوق. وبتلقائية توثقت علاقته بعزت ورأفت وسامح، جاراهم فى الثقافة والرؤية مع انتماء أشد إلى الوطنية أهَّله ليكون رئيسا للجنة الطلبة الوفدية بالوايلى. والتحق بكلية الطب فى أول الثلاثينات وتخصص فى الجراحة وصار مع الزمن من كبار الجراحين. وبحكم عمله انقطع عنا فيما عدا المناسبات. أما حسن فكأنما خلق ليكون مهرجا محترفا. شخصيته عجيبة لم يقف أحد على سرها الدفين. لا أذكره إلا غارقا فى الضحك، يضحك إذا سمع نكتة أو أطلق نكتة، يضحك فى مواقف الهزل كما يضحك فى مواقف الجد. فى الأفراح يزيط ويجلجل. في الجنازات يتحين الغفلات ليسخر من مظاهر الحزن أو يروى النكات عن الموت والأموات. وفى المآتم نتجنب الجلوس فى مجاله. لم أعرفه جادا على الإطلاق ولو مرة واحدة، خفة؟

استهتار؟ مرض؟ . . الله أعلم. وأخوه حسين كثيرا ما يضيق بأقواله وأفعاله، وربما وجه إليه كلمات حادة عما يليق وعما لا يليق، فكان يسدد نحوه رشاش نكاته حتى يجعل منه أضحوكة لنا. ويحتكم حسين إلى أبيه ولكنه لا فائدة ولا عائدة. الفنجرى يئس تماما من حسين، ورغم ذلك ـ أو بسبب ذلك ـ خصه بعطف كبير. ولما التحق الأصغر بكلية الطب، وترنح الآخر وهوى أكثر من مرة أمام حاجز البكالوريا، قرر الرجل أن يرسله إلى فرنسا فى بعثة خاصة.

قال له:

ـ ارجع بأى شهادة!

وودعنا الصديق المرح فى ليلة تذكر، وسافر إلى فرنسا. وعلمنا منه فيما بعد كيف انقضى وقته فى باريس كالأعيان، فى نطاق خمسة عشر جنيها شهريا، وكانت كافية لمعيشة حسنة فى الشارع والملهى وبيت الدعارة. وترامت إلينا أخبار غريبة عنه، وهى أنه اختير للغناء فى بعض الملاهى الليلية. الحق أنه لم يعرف له أى استعداد للغناء، فلم ندر كيف استجابت حنجرته للنغم الفرنسي وكيف وجد من يعترف به مطربا أو من يستمع إليه. وكم وددت أن أشهده وهو يغنى، وهو يتعامل مع مدير الملهى والزملاء.

وهل استطاع أن يمسك عن الضحك فى وقت العمل؟! على أنه كان حتما مطربا عاديا وإلا لشق لحياته طريقا آخر. ولكنه رجع إلى مصر عندما أنذرت الحوادث باندلاع الحرب. رجع كما ذهب يا مولاى كما خلقتنى، لا شهادة ولا مال، حتى معرفته بالفرنسية كانت معرفة شوارع. وواصل حياته القديمة معنا، المهرج الخفيف اللطيف المرح الذى لا يحمل هما أو يتعثر فى مشكلة، وانقطعت صلته بأخيه تماما دون أسف من الجانبين. ومضت حياته بين المقهى والملاهى تحت ظلال الخمر

والمخدرات . وفى أثناء الحرب تعرض لتجربة قاسية فى إحدى صالات العرض السينمائى . ساقه حظه إلى الجلوس إلى جانب فتاة بصحبة أسرتها ، وحاول أن يعبث فى الظلام ، وخرج فى عبثه عن الحدود حتى صرخت البنت وكانت الفضيحة . وانتهت الواقعة بإلقائه فى السجن عاما أو عامين لا أذكر . ومات الفنجرى وهو فى السجن . وغادرحسين السجن ليرث ثروة تضمن له حياة ميسرة . ولم يغير السجن من شخصيته شيئا . وراح يحكى لنا الواقعة وكيف وقعت فى الظلام وهو لا يتمالك نفسه من الضحك وكيف سعى أبوه إلى التوفيق مقترحا أن يتزوج حسين من البنت ولكن الأب رفض بإباء . وحكى لنا كثيرا عن السجن ونوادره وكأنما كان راجعا من مسرح الريحانى . . وواصل حياته ، المهرج ، الخفيف ، المرح ، اللامبالى ، السكير ، الحشاش ، حتى أصابته أزمة قلبية فى الخمسينات وهو يشرب فى البارزيانا ، فحمل إلى البيت وأسلم الروح عند منتصف الليل .

أذهلنا الخبر كأنما لم نصدق أن أمثاله يموتون . وذكرنا آلاف الضحكات التى أطلقها من صدورنا فخيم علينا حزن ثقيل .

* * *

آل الكاشـــف

فيما يلى آل الفنجرى يقع بيت آل الكاشف ، ولدى انضمامنا إلى سكان الشارع لم يكن بقى من أهل البيت فيه إلا رب الأسرة والابن الأصغر عبد المنعم وهو صديقنا . الكاشف بك فى الحلقة السادسة ، من كبار مهندسى الرى ، وذو مظهر عسكرى صارم . وله بعيدا عن شارعنا

ابن وهو البكرى، وابنته تليه فى العمر، أما صديقنا فقد ولد عقب فترة انقطاع غير قصيرة. ويعتبر البكرى من نوابغ عصره، دكتور فى الكيمياء من إنجلترا، وفى طليعة الرجال الذين بسطوا العلم ونشروا ثقافته بين عامة المثقفين، وامتاز بأسلوب أدبى سلس وبليغ يسلكه فى نطاق بلغاء العصر من الأدباء المحترفين دون مبالغة. ولا تقل الأخت نبوغًا عن أخيها، وقد نالت الدكتوراه من إنجلترا أيضا فى الرياضة وتألقت فى عالم التربية والتعليم. عرفت الأسرة بالذكاء والتفوق، وهى تدين فى تفوقها أيضا بجدية الأب الإسبرطية وحرصه الدائب على تأهيل أولاده للبروز فى البيئة العلمية، صديقنا عبد المنعم نشأ فى جو مختلف.
ترعرع فى أحضان الإسبرطية ولكنه فقد منذ طفولته حنان الأم ورعايتها. ولم توجد مشكلة فى الدراسة فقد كان يحفظ دروسه وينجح، ولكن الكاشف بك يعتبر النجاح المدرسى أولى الخطوات فحسب، ويطالب أبناءه إلى ذلك بالثقافة والاطلاع والاستقامة فى السلوك والطباع داخل البيت وخارجه، وخيب عبد المنعم تطلعات أبيه فى ذلك كله. عدا النجاح والانتماء الوطنى المتوسط أيضا لم يكترث بشىء. كره البيت فهو لا يلزمه إلا عند المذاكرة، وانتمى للشارع بكل جوارحه، يهيم على وجهه هنا وهناك، ويقتبس قاموسه الخاص مما يلقى على سمعه، منجذبا انجذابا خاصا إلى الشواذ والغرائب. وانفجر بينه وبين أبيه خصام لا ينتهى، وكان يتحمل التأديب الشفوى واليدوى بقوة خارقة، لا يتراجع عن أهوائه أبدا. وفى العطلة راح أبوه يخفى أحذيته فى صوانه الخاص ويغلقه ليضطره إلى البقاء فى البيت مع الكتب، فكان ينطلق إلى الطريق منتعلا قبقاب الحمام دون مبالاة. ويحرمه من المصروف اليومى فيبيع ما يختاره من تحف ابيت وأوانيه، ويأكل كل علقة وأختها صابرا متصبرا، حتى جفت ينابيع الحب بينه وبين أبيه، وكم يتمنى موته جهرا وكم نذر لذلك النذور، واشتهر بحب أطعمة السوق

الشعبية مثل لحمة الرأس والكشرى والطعمية والفول والعدس والفسيخ ولم يكن يشارك أباه المائدة، ويستعمل الشوكة والسكين إلا فى نادر النادر، قال عنه حسن الفنجرى :

ـ إنه صاحب أعظم معدة شعبية .

وفى تجواله حفظ الكثير من نواح النادبات، وكان يطربه أكثر من أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب، وفى ليالى السمر يسمعنا مالا نحب مثل :

عينى عليك ياللى تموتى عازبة

أو يا شابة يا صبية ياقد المعدية

وكثيرا ما كان ينشد مراثيه ونحن نخترق الحسينية فى طريقنا إلى حى الحسين، ونردد وراءه المقاطع المكررة، فيتطلع إلينا الأهالى متوقعين أن يشهدوا جنازة، ولما تتكشف لهم الحقيقة ينهالون علينا بالشتائم والدعوات الطالحات!

وهو قوى الجسم، عملاق القامة، شعبى الملامح، مرح رغم همومه، طيب القلب. وليس من النادر، إذا طرده أبوه إثر احتدام خصام ـ أن يبيت فى الحقول وحده. ومن عجب أن لم يبد أى اهتمام بالجنس الآخر، ولا تأثر يوما بالجمال. ما من فرد من شلتنا إلا عشق، وتشكى آلام العشق والحرمان، حتى محمد السناوى، أما عبد المنعم فربما كانت أكلة كرشة أهم عنده من أجمل امرأة فى العباسية. ولى معه واقعة عرضنى فيها للموت لولا لطف الله. حدث ذلك فى الثلاثينات وفى تجمع شعبى خطير قام لاستقبال مكرم عبيد حال عودته من رحلة سياسية ناجحة فى الخارج. وكانت دكتاتورية محمد محمود تلفظ أنفاسها فسمحت الداخلية بالمظاهرة وأمرت رجالها بالمحافظة على الأمن مع عدم التعرض للمتظاهرين. لأول مرة نرى رجال الأمن وهم

يتفرجون علينا فى دعة وسلام. ومر موكب سكرتير الوفد يشق طريقه فى بحر زاخر بالهاتفين. وسرنا وراه بأمل أن نستمع إلى الخطب فى بيت الأمة. وفى مكان ما من الطريق صادفنا مأمورا فى ملابسه الرسمية يقف وسط التيار بلا سلاح وفيما يشبه المودة والتشجيع. وفجأة انقض عليه عبد المنعم ووجه إلى بطنه لكمة عنيفة غير متوقعة انقلب على أثرها على وجهه وهو يخور. تلفت فيما حولى فى فزع فرأيت فارسا على بعد يتطلع إلى الحادث بغضب ويحاول الاندفاع نحونا. وجرينا بالسرعة التى يسمح بها الزحام، ونحن نعلم أن الموت يطاردنا. وكلما قطعنا شوطا نظرنا خلفنا فنرى الفارس وقد لحق به نفر من الفرسان وهم يشقون طريقهم بصعوبة وأعينهم لا تتحول عنا ومازلنا نجرى حتى لذنا ببيت الأمة ونحن نرجو ألا يكونوا قد تابعوا لواذنا. وقبعنا فيه والخطب تلقى والهتاف يتصاعد. ولم أصدق ليلتها أننى نجوت وأننى رجعت إلى بيتى سالما وأسأله بحنق:

- لماذا فعلت ما فعلت بلا أى موجب؟

فيقول ضاحكا:

- أى اعتداء على الشرطة حلال!

ورغم مرحه الغالب كان الاكتئاب يزوره من حين لآخر فيلوح كالمريض. ربما لقامة أبيه التى تظله وتطارده. وربما لتفوق أخيه وأخته وضآلته بالقياس إليهما. وفى لحظة من لحظات الاكتئاب أقدم على الانتحار. دأب على ذكر الانتحار فى حديثه باعتباره أمل اليائسين ولم نأخذ حديثه مأخذ الجد. بل حاول أن يصحبنى معه فسألنى يوما.

- لماذا لا تفكر جديا فى الانتحار؟

فقلت هازئا:

- امنحنى فرصة للتفكير، ولكن لماذا أنتحر؟

فقال جادا :

ـ لقد أرهقك الحب كما أرهقتنى الكراهية، ألا يكفى ذلك؟

ولكننى لم آخذ قوله مأخذ الجد. وجلسنا ذات أصيل فى المقهى نستعد للعب النرد وإذا به يقوم قائلا :

ـ عن إذنك دقيقة . .

وغاب خارج المقهى وجلست أنتظر وإذا بصراخ ينفجر كالعواء. هرعت إلى مدخل المقهى فرأيت عبد المنعم يتمرغ عند أصل شجرة مغروسة أمام المقهى، ويعض جذعها من شدة الألم. وتجمع الناس. واتصل من اتصل بالإسعاف وقال بعضهم :

ـ واضح أنه انتحار .

وجاءت سيارة الإسعاف فحملته وقد شملنا الفزع والذهول. وعرفت أنه شرب كمية من حمض الفنيك ولحق بى فى المقهى. وأسعفوه فى الوقت المناسب. واستدعوا الكاشف بك لسؤاله فأدلى بأقواله وذهب دون أن يلقى نظرة على ابنه. ورجع كما ذهب لم يعن بزيارته سوانا. وتأثرنا جميعًا غاية التأثير. وأبى عزت إلا أن يفعل شيئا. قابل الكاشف بك، وخاطبه بالأسلوب التقليدى قائلا «يا عمى» وقال له :

ـ عبد المنعم فى حاجة إلى عطفك حاجته إلى حزمك!

ولم ينبس الرجل بكلمة، وظل طيلة الوقت متجهم الوجه، حتى غادر عزت البيت دون أن يقدم له فنجان قهوة.

ولما حصل عبد المنعم على البكالوريا قرر أن يلتحق بالكلية الحربية. ولم يعترض الكاشف بك يأسا منه فقال :

ـ فى ألف داهية .

ونجح بعد ذلك فى الالتحاق بكلية الطيران الجديدة. وأظهر تفوقا

فسافر فى بعثة إلى إنجلترا، ولدى رجوعه فاجأنا بزواجه! لا ندرى كيف انتبه فجأة إلى وجود الجنس الآخر وأنجب ابنه الوحيد. وألحق بخدمة الملك فاروق ياورا فصار من المقربين وعلق حسين الجمحى على ذلك بقوله:

- من الكرشة ولحمة الرأس إلى سراى عابدين، يا لها من وثبة خرافية.

ومنعته تقاليد وظيفته الجديدة من مجالستنا فى المقهى. ربما تسلل إلينا فى بعض الليالى إطفاء للشوق ثم يذهب فى حذر. أخلاقه لم تتغير ولكن تقاليد حياته الجديدة لا تعرف الرحمة. ولاحظت أنه أصبح ملكيا ونسى الوفد تماما وانتحلت له الأعذار. وذاع عن الحاشية ما ذاع ولكن لم تحم حوله شبهة أبدا. ولما قامت ثورة يولية حاول أن يهرب الملك ولكنه فشل. وجرى معه تحقيق واكتفى بإحالته إلى المعاش دون محاكمة مما قطع بنقاء سلوكه. غير أن أقران ابنه فى المدرسة عيروه بأبيه حين التحقيق معه وبعد إحالته على المعاش وأبوا أن يعترفوا ببراءته. وناضل الولد ما استطاع عن سمعة أبيه حتى أصيب بانهيار عصبى وتكالبت عليه المضاعفات حتى تقرر إدخاله مستشفى الأمراض العقلية وما زال مقيما بها حتى الساعة.

ورجع عبد المنعم بعد المعاش إلى سابق عهده بنا، لم يكن الشخص القديم ومن منا كان؟ وبدا متماسكا بعد فقدان وحيده أكثر مما توقعنا. وسرعان ما فسدت حياته الزوجية لأسباب لم يعلنها وربما لم يكن من المستحيل تصورها. وانتهى الأمر بينهما بالطلاق. وما لبث أن تزوج من امرأة ألمانية، فهيأت له حياة مستقرة لم يعرفها من قبل، وعاش حياته سعيدا أو كالسعيد ما بين مصر وألمانيا. ومن العجيب أن حديثه شهد على ما اكتسبه فى حياته من نضج وحكمة وثقافة جعلت منه شخصا جديدا بالغ الروعة. لم يكن من أنصار الثورة ولكنه أيضا لم يكن من

أعدائها المتعصبين وحسبه ذلك. وحظى بمستوى معيشة حسن بفضل معاشه وميراثه. وقد تجلى إخلاصه فى حزنه الشديد فى أعقاب هزيمة ٥ يونية، وانتعاش روحه عقب حرب ٦ أكتوبر. وكان يجب أن تتوقف دراما حياته عن إفراز المفاجآت ولكن زوجته الألمانية أهدت إليه آخر المفاجآت. فبعد المعاشرة الطويلة والإيغال فى الشيخوخة إذا بها تتمرد فجأة على حياتها الزوجية واستمرار الحياة فى مصر. وانفصلت عنه راجعة إلى ألمانيا تاركة إياه فى وحدة وشيخوخة. وقال:

ـ هجرتنى الولية المجنونة فى سن لا تسمح بعلاج لوحدتها..

ولكنه خلق حمالا للهموم والمصائب. وظل يمتعنا بمعاشرته العذبة حتى طلع علينا «الأهرام» ذات صباح بنعيه وانضم ركب من الذكريات الحميمة العزيزة إلى القافلة التى لا تتوقف عن السير.

* * *

آل ضرغام

ويجىء بعد آل الكاشف بيت آل ضرغام، ويقيم فى البيت ربه ضرغام الهندى وبكريته صافيناز وابنه الأصغر ـ صديقنا ـ سيد، أما الأم فقد رحلت عن دنيانا من قبل انتقالنا إلى شارع الرضوان بأعوام ثلاثة. الأب متوسط القامة قمحى اللون واضح الملامح صلب القسمات يوحى منظره بالحدة والجدية والتجهم. يملك محل رهونات بباب الخلق يستأثر بكل وقته من طلعة الصبح حتى هبوط المساء. وعدا الاشتراك فى واجب العزاء فلم يعرف واجبا من واجبات الجيرة. وعم فرج يقول عنه فى غياب سيد طبعا:

- غضب ربنا مطبوع على وجهه!

وخيل إلينا أننا نرى أثر الغضب الإلهى فى وجهه الجامع بين الحسن والصرامة. ولكن عم فرج كان يعرض بمهنة الرجل الحقيقية وهى الإقراض بالربا رغم إسلامه الرسمى بل وصفه كثيرون من أهل شارعنا بالملعون، ولم يخف ذلك عن سيد، ولم يبد أنه اكترث له أو اغتم وكانت صافيناز على جمال ورشاقة فعشقها يهودى من سكان السكاكينى وتزوج منها بعد إشهار إسلامه، وسمعنا أنه تاجر أقمشة، وعلى درجة حسنة من الثراء، كما كان من المتعاملين مع ضرغام فى حقل العمل وصديقنا سيد صبوح الوجه رشيق ضحوك مطبوع على اللامبالاة وكنا نحبه لجاذبيته وصراحته وذكائه كما نجد فى لامبالاته موضعا دائما للإثارة. وما أشبهه بسامح فى موقفه من التقاليد ولكنه من نوع آخر ولأسباب مختلفة وقد زاملنا فى المدرسة الابتدائية ثم تحول منها إلى التجارة المتوسطة رغم استعداده الطيب للنجاح، إذ أن أباه ضرغام أفندى هندى نجح فى أن يصبه فى قالبه، فقال له:

- لا أهمية للتعليم إلا كتمهيد للعمل فلا تهتم بالشهادات.

كان يعده ليحل محله فى محل الرهونات والإقراض بالربا. ولم يمهله حتى يرشد فقرر أن يؤقلمه بجو العمل وعبادة المال من صباه. الأول جعل منه المحصل الأمين لأقساط قروضه ليمارس ويتدرب ويندمج. ومضى يتردد على المقترضين بدفتر الإيصالات ويحصل الأقساط ويرجع بها إلى أبيه سعيدا فخورا نظير نسبة من الأرباح، وتعلم منذ تلك السن المبكرة أن يربح وأن يدخر وأن يعرف لكل مليم قيمته ويقول لنا ضاحكا:

- كلما أقبلت على رجل منهم فر الدم من وجهه..

فيقول له حسن الفنجرى:

ـ أهلا بعفريت الرجال!

وتأدب بآداب أبيه فى تقديس القرش وعبادته، ولم يكن يصرف مليما إلا لضرورة مقنعة. وتعود منذ صغره أن يسمع الغمز واللمز يقرضان سمعة أسرته، وتهم الشح والكفر تنهال عليها، فنشأ بكل بساطة مزدريا للدين والتقاليد والأخلاق التى تدين أباه وعمله. كان وثنيا وكأنه من مواليد الغابة مثل طرزان، بلادين ولا وطن، ثم قرر أن يعيش بلا أسرة أيضا يسخر دائما من الزواج والأبوة ولم يخف دهشته من المجانين الذين يتزوجون، ولم ينتم لأى مبدأ أو رأى أو شرق أو غرب. ولعله من أعجب الأمور أن تجمع شلتنا كل تلك المتناقضات وأن تحافظ فى ذات الوقت على المودة والحب بين أفرادها. وفى الثلاثينات توفى ضرغام أفندى هندى بالسكتة القلبية. وافته المنية فى بيت من بيوت الدعارة الرخيصة! لم يتزوج الرجل بعد وفاة أم سيد. لعل حرصه على المال هو الذى صده عن طريق الزواج. ولم يعرف عنه فى حياته كلها أنه ممن يستجيبون إلى قلوبهم فى قول أو فعل. ولذلك فإن مخاوف صديقنا سيد من تلك الناحية كانت وهمية ونتيجة لسوء ظن فى غير محله بأبيه. كلا، عاش الرجل أمينا مع نفسه تماما، وكان كلما ثقلت عليه الوحدة روح عن صدره بزيارة سرية لبيت من بيوت الدعارة. وشاء سوء حظه أن تفيض روحه فى آخر مغامرة من مغامراته. لذلك كثرت نوادرنا حوله، وجعل منه حسن الفنجرى شخصية أسطورية مثل جحا، وكان سيد يشاركنا فى المزاح ويسبقنا فى الضحك. كان يباهى بكل ما يؤخذ عليه من البخل والإقراض الربوى والوثنية ونوادر أبيه. وبموت أبيه حل محله فى دكانه وعمله وورث نصيبه من أمواله المكنوزة فى البنوك وبات من أغنى الأغنياء بكل معنى الكلمة. وكان بخلاف أبيه لا يضن على نفسه بمتعة، فجدد البيت بناء وأثاثا، واقتنى سيارة فورد، وقال ملخصا فلسفته:

ـ سأعيش طيلة عمرى عزبا، حسن! يجب أن تكون العيشة محترمة، مسكنا وملبسا وطعاما وجنسا، ولا مليم وراء ذلك إلا بحساب. .

لا مليم وراء ذلك. وأذكر أنه أثار مرة ضجة لخلاف حول مليم فى حساب مشترك بينه وبين سامح. وأراد سامح أن يغالطه على سبيل المزاح ولكنه اضطر إلى التسليم إيثاراً لراحة الدماغ. ومن صفاته البارزة بعده الكلى عن الفن والثقافة وجهله الكامل للحب. لم تحركه أى فتاة، ولم يخفق قلبه أبدا بغرام، وكان للمرأة وقت محدد فى جدوله الأسبوعى، وقد يختارها من الملاهى الممتازة ويؤدى لها ثمنها المرتفع ثم يمضى إلى حال سبيله. ومرت بوطنه أحداث وأحداث وهو ينظر إليها من بعيد أو لا ينظر إليها على الإطلاق. وراح الزمن يتقدم وهو يكبر ولا يتغير ضاربا المثل الحى للرجل الناجح السعيد. وأسأله أحيانا:

ـ ألا تشعر بالوحدة؟ ألا تحن إلى الأبوة؟ ألا تندم على شىء فاتك؟

فيقول ضاحكا ساخرا:

ـ إنك تسأل عن أوهام بدافع من أوهام!

ـ قد يضعف الإنسان فى شيخوخته؟

ـ لم يفتنى الاستعداد لذلك!

ـ كيف؟

ـ إنى أحتفظ للظروف السيئة بسم يقتل فى ثوان!

نظرت إليه ذاهلا فقال:

ـ قد ترى حياتى سخفا ولكنى هكذا أرى حياتكم. .

ـ على أى حال لن تأخذ المال معك إلى قبرك؟

ـ المهم أن يسند ظهرى فى هذه الحياة. .

طالما أحنقنى لتمرده على نظرياتى. طالما توقعت أن يقع فى حب

ليخلقه من جديد ولكنه لم يقع فى حب. طالما تصورت أنه سيندم فى شيخوخته على ما فاته فى شبابه ولكنه لم يندم. أصر على أسلوبه فى جمع المال وشرب الوسكى الفاخر وتناول الطعام اللذيذ والزيارة العابرة للغانية الأثيرة والبعد الكلى عما يكدر الصفو من شئون الدنيا والآخرة.
ومرة على الأقل تنبه إلى أن راقصة تعامله بحنان خاص، وتلاحقه بالتليفونات، وتفاجئه بالهدايا. وترجم ذلك باللغة الوحيدة التى يتقنها، وهى أنها ترمى شباكها لتغتال ماله، وقطع علاقته بها دون مقدمات، ولديه جرأة على ذلك لا تبارى. واقتحمت عليه مجلسه فى الأوبرج ذات ليلة لتصارحه بأنه بلا قلب، فقال لها ساخرا كعادته:

ـ أعرف للقلب وظائف كثيرة ليس بينها الحب!

وتشفعت المرأة إليه ببعض معارفه فقال:

ـ الكرم نفسه أقرب إلى من الحب!

فإذا سئل عن سر الحب الذى وقع فيه كثيرون من شلتنا قال:

ـ إنه الحرمان، هذيان الحرمان وخيالاته.

فسألته متحديا:

ـ وملك إنجلترا الذى تنازل عن العرش من أجل امرأة مطلقة؟

ـ الجنون حقيقة موجودة، يجب أن نسلم بهذا!

غير أنه اعترف فى شيخوخته بأن الجنس الميكانيكى يضعف ويدركه الخمود.

ولعله لم يعرف الخوف إلا بعد قيام ثورة يولية. أجل لم يكن من ملاك الأراضى ولا من رجال السياسة، ولكنه على أى حال ينتمى إلى الطبقة الغنية التى ترمقها الثورة بريبة وعداء. ومن أجل ذلك، وبمعاونة بعض أصدقائه من اليهود، هرب بعض أمواله إلى الخارج. ومضى يهتم بالسياسة وأخبارها لأول مرة فى حياته. وجعل يقول لنا صراحة:

- جلا الإنجليز عن البلاد وأخذوا معهم القانون والأمن . .

وتعالت الاعتراضات فى ركن المقهى فقال بإصرار :

- نحن لا نصلح لحكم أنفسنا ، وإذا لم يكن بد من أن يحكمنا جيش فمن الأفضل أن يحكمنا جيش متحضر . .

لذلك اعتبر يوم ٥ يونيه عيدا فى حياته ، ومضى يقول شامتا ساخرا :

- المسألة إن الجيش لا يجوز أن يحارب فى جبهتين ، وقد انتصر الجيش علينا فى الداخل فله العذر إذا انهزم فى الخارج !

وجاء الانفتاح فكان عيدا آخر وتنوعت أعماله وتضاعفت أرباحه ، وكان يقول :

- يقولون إننا نرتمى باختيارنا فى حضن الاستعمار الأمريكى فاللهم بارك خطانا !

وهو اليوم فى الخامسة والسبعين ، قل نشاطه ولم ينعدم ، صحته حسنة ، ومزاجه رائق ، وضحكته عالية . وقد اكترى شقة على النيل فى طريق المعادى فى الدور الخامس عشر ، ويقسم لياليه بين ملاهى الهرم ومقهى العباسية .

* * *

آل العلـــوى

جيران السناوى . ولبيتهم ميزاته من الضخامة النسبية وجمال الأثاث والرياش ، فضلا عن أن جدرانه معرض وطنى لزعماء الوفد . وآل العلوى أسرة عريقة فى الثراء والجاه وجدهم مذكور فى تاريخ الجبرتى بين النخبة الوطنية المصرية ، وعندما انتقلت إلى شارع الرضوان وتوثقت

عرا الصداقة بينى وبين ابنهم الأصغر جميل، كان رب الأسرة قد لزم الفراش طريحا مفلوجا، وكانت الأم تقوم بواجبات الوالدين معا، وإلى ذلك كان له أخوان من أهل العلم والخبرة يشغلان وظائف مرموقة فى الحكومة، وأختان متزوجتان من موظفين كبيرين، والأم سيدة ممتازة حقا ممن سبقن إلى التعليم فى أعلى درجاته المتاحة، وشاركن فى الحركة الوطنية، احتلت مركزا رفيعا فى لجنة السيدات الوفديات، هو بإيجاز بيت علم وجاه ومال ووطنية. ولما مات الأب شهد شارعنا جنازة كبرى سار فى مقدمتها سعد زغلول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وماهر والنقراشى وغيرهم من أساطين الثورة المصرية. وجميل مشرق الوجه، رياضى الجسم، نبيل المظهر، ولكنه انحرف عن سبيل أسرته فوهب نفسه للرياضة واللهو، ولم يحقق فى حياته المدرسية النجاح المتوقع فحصل على الابتدائية بطلوع الروح، وغلب الحب أمه فلم تعامله بالحزم الواجب. كان يطلع على المجلات والكتب، وكان ذكاؤه أكبر من همته فلم يطبع بطابع التفاهة أو السطحية أبدا، ولم يفتر اهتمامه بالشئون العامة. وأصيبت أمه بمرض عضال لم يمهلها طويلا فلحقت بزوجها، ووجد صديقنا نفسه وحيدا فى بيت الذكريات مع الطاهى وخادم عجوز. وتسلم تركته الوفيرة فى وقته فاقتنى سيارة فيات وعاش عيشة الأعيان منذ شبابه الباكر. إنه مثال نادر الوجود فى نبل أخلاقه ونقاء سريرته وشهامته وخفة ظله وخالص مودته فضلا عن انتمائه القلبى إلى وطنه. ولا شك أنه تنبه بعد فوات الفرصة إلى فداحة الخسارة التى حاقت به بإهماله الدراسة، وإلى الفوارق التى باعدت بينه وبين أفراد أسرته والناجحين من أصدقائه. ولكن ذلك لم يوغر صدره على أحد ولم يرسب فى أعماقه عقدة من عقد النقص أو العظمة الكاذبة، فظلت العلاقة بينه وبين إخوته وأصدقائه على أتم ما يكون من الصفاء والمرح. ولكنه من ناحية أخرى انغمس فى ملاهى الشباب فعشق النساء

وشرب الخمر وجرب المخدرات. وربما شابه سيد ضرغام فى استهتاره أو سامحا فى تمرده على التقاليد، ولكن ذلك اقتصر على السطح دون الأعماق. كان صاحب عقيدة دينية ومبادىء أخلاقية ووطنية، ولكن بقدر ما امتلأ قلبه بالأنوار بدا سلوكه منحرفا مستهترا متمردا. يؤمن بالله ودينه ولكن لا يؤدى فريضة ولا يحترم طقسا ويتأجج قلبه بالوطنية ولكنه لا يترجم ذلك إلى سلوك أو فعل، فلم يتفق قلبه وسلوكه إلا فى المعاملة، معاملة الأصدقاء بصفة خاصة والناس بصفة عامة. ومضى فى حياة اللهو ما بين القاهرة والإسكندرية حتى فكرت أختاه فى تزويجه من بنت الحلال المناسبة. ولما فاتحتاه فى ذلك قال بهدوء حازم:

ـ لن أتزوج، إنه قرار قديم ولكنه أبدى!

ودهشنا لما سمعنا. وكان عبد الخالق ـ الملهوف على الزواج والمحروم منه لفقره ـ أشدنا دهشة وقال له:

ـ تستطيع أن تتزوج من أحسن بنت فى البلد..

ولكنه كان يفكر تفكيرا مختلفا. الزواج الذى تقترحه أختاه زواج الكفاءة، والأسرة والعرائس فى طبقته يتطلعن إلى المركز والشهادة مع المال أو قبل المال. وهو يتحمل أى شيء إلا أن يرفض لتعليمه الرسمى المحدود أو بطالته! فتحت إشراقة الوجه وسماحة الخلق ولطافة المعشر كمنت الكبرياء كقوة لا تعرف الوسط. قلت له:

ـ توجد ولا شك من ترحب بك.

فقال باسما:

ـ لست شحاذا!

ورغم كل ما قلت عنه فإن قصته الحقيقية لم تبدأ بعد. ألم تبدأ وتنته مع القمار؟ أجل إنه متعدد الهوايات، فهناك الصداقة والحب العابث والشراب والقراءة والسينما، ولكن كل أولئك لا تمثل إلا هامش حياته

فقط، أما اللب والجوهر والماهية فهو القمار، بدأ لعبه، هواية تسلية، وتمكن واستفحل حتى صار جوهر الحياة ومعناها ونبضها وحلمها وكل شيء فيها، صار قلبه وعقله وخياله وأعصابه، قلنا إنه القمار والقمار هو. النرد والبصرة، البوكر الكونكان في المقهى، في البيت، في النادي، ثم بعد التحريم في بيوت القمار السرية. وكان له وقت معين وللأشياء وقتها، ثم التهم الليل كله حتى مطلع الصبح، وأصبح لكل شيء سواه وقت يخطف خطفا. وأصبح المحور وكل شيء يدور من حوله. المائدة هي الأصل، وقد يشرب وهو جالس إليها، أو يتناول طعام عمل، أو يعشق امرأة مقامرة. كل لذة باتت ثانوية بالقياس إلى القمار، حتى الحب نفسه. كأن الكون لم ينفجر، والأرض لم تولد، والحياة لم توجد، إلا كي يتمخض عن ذلك كله الكوتشينه الملونة المزركشة برموزها وأعدادها المقررة للمصائر. ولم تؤثر المقامرة في صفاء أخلاقه. فلم يقارب الغش، ولا التآمر، ولا الحقد أو الغضب حتى لو تبين له أنه كان ضحية اغتيال واحتيال. وجرت الحياة على منوال واحد حتى بلغ. الخمسين من العمر. وعقب استيقاظه من نوم النهار، ذات يوم من الأيام، ما يدري إلا ويد تقبض على عنقه، وتضغط بغلظة على جهازه التنفسي، وتمزق حنايا صدره ويخف إليه طبيب الحي ليعلن عن مجيء الذبحة الصدرية. ويصف العلاج والرجيم ويوصي بالتزام الفراش شهرا على الأقل، لم يصدق ولم يستسلم. أبى أن ينضم إلى زمرة العاجزين أو شبه العاجزين، أبى أن يحرم نفسه من طيبات الحياة من أجل ضربة عابرة. وما كاد يشعر بتحسن مع دخول الليل حتى نهض فارتدى بدلته وذهب إلى سهرته! ورجع إلى بيته في الصباح الباكر ليتلقى الضربة الثانية. ولم يصدق الطبيب ما حصل، وقال:

ـ إنه الجنون نفسه. .

وأدرك على رغمه أن الحال تقتضي جدية وصبرا فاستكن. ولما استرد

صحته فكر فى الأمر مليا. إنه مطالب بتناول الدواء بصفة مستمرة، والحرمان من لذيذ الطعام، وتجنب الانفعالات أو القمار بمعنى آخر. وبمعنى آخر أيضا إذا أراد الحياة فليقنع منها بأن يكون جثة محنطة، ليستمر نبضه وتنفسه عددا من السنين. كلا ليس هو ممن يختارون هذه الحياة. إنه لا يخاف الموت ولا تزعجه فكرته وما تهمه إلا الساعة التى هو فيها. والموت آت على أى حال سواء سبق بالفوضى أم بالنظام، بالاستهتار أم الحرص، فاحى حياتك وليكن ما يكون. ومارس حياته كأن لم تعترضها ذبحة أو طبيب أو إرشادات طبية. ويراقبه الأصدقاء بقلق، ولا يضنون عليه بالموعظة والإرشاد، ويشيدون بفضيلة الاعتدال، تذكر ما وهبك الله من مال وحرية وعقل، توجد فرص كثيرة للحياة الطيبة الطويلة، ولكننا ننهزم حيال ابتسامته الحلوة الساخرة الملخصة لفلسفته فى الحياة بلا كلام، بل إنه اعترف لنا ذات يوم قائلا:

ـ الدهن الحيوانى محرم علىّ كما تعلمون، ولكننى لا أرضى بأقل من ست كعكات من كعك العيد!

وصاح به حسن الفنجرى:

ـ إنها تتخم مدينة صغيرة لا معدة فرد من بنى آدم..

وواصل سهره مع القمار إلى الصبح، وخطر لى يوما أن أسأله عما يجذبه بكل تلك القوة إلى مائدة القمار. توقعت أن يقول الفراغ أو الضجر أو اليأس ولكنه أجابنى مرة فى لحظة صدق:

ـ المائدة تجمعنى بنخبة من الأكابر، لا على أساس من المساواة فحسب، ولكنها تمنحنى السيادة أيضا فى كثير من الأحايين، ولا تنس لذتها الجنونية..

ويئست من تقويمه، وتوقعت مصرعه بين يوم وآخر. سنخسر صديقا من أنبل من عرفنا فى حياتنا، صديق الذكريات الطيبة التى لا تشوبها

شائبة. ولم تصدق مخاوفى. بل خيل إلى أن الذبحة تناسته كما يتناساها، وأنه أحرز انتصارا على قوانين الطبيعة. وفاجأنا وهو يقترب من الستين بقوله:

ـ أريد أن أتزوج!

أعلن رغبته بعد انقضاء عامين على وفاة امرأة عاشرها طويلا. عرفها فى بيت قمار، واتخذها خليلة، وجمعت بينهما ألفة كالزوجية أو أشد. وطالما ألحت عليه أن يتزوج منها وأن يتوب عن القمار ولكنه جاد بكل شىء إلا الزواج. وماتت فجأة، ولأول مرة أراه يبكى بحرارة. لأول مرة يكشف عن قلبه الذى يخفق بالحب كما يخفق بالحزن. كأنما أرى شخصا جديدا تماما. أجل شهدت حزنه يوم وفاة مصطفى النحاس ولكنه مر سريعا، وحسبته تحية قلبية لذكرى والديه. أما هذه المرة فقد بكى بكاء مرا وسلم نفسه لنوبته بلا حرص، ولم يعد الرجل الذى يتحدى الموت ليله ونهاره. وبعد انقضاء عامين حن إلى الزواج، ولم يبذل من ناحيته أى جهد لتحقيق رغبته ولكنه أعلنها لنا وانتظر. وتحاورنا فى حيرة، حقا إنه رجل ثرى وجيه وابن أسرة كريمة، ولكنه فى الستين من عمره ومدمن قمار ذائع الصيت. لن ترضى به امرأة إلا بعيب فيها أو طمعا فى أن ترثه بعد موته. وشعر بأننا نحرث فى بحر كما يقولون فتجاهل رغبته وطواها فى صدره وواصل حياته المنعمة بالعنف والتحدى واللامبالاة.

وأخيرا جاءت النهاية. جاءت الذبحة. ربما متأخرة عن توقعاتنا. ولكن مضاعفة لدهشتنا وانزعاجنا. وكنا معه على موعد. ولكن حيل بينه وبين الوفاء به فى هذه الدنيا.

* * *

آل كناشة

في جوار آل ضرغام يقوم بيت آل كناشة وهو الأخير في هذا الجناح. ربه الشيخ محمد كناشة، قارئ القرآن الكريم، لا هو من المشاهير مثل على محمود وإسماعيل ندا، ولا هو أيضا من قراء المواسم فى القرافة ولكنه فى منزلة متوسطة ضمنت له رزقا لا بأس به، وزوجته فلاحة ودودة لا تخلو من وسامة. وللأسرة ذرية مباركة، مكونة من سبع بنات متزوجات، وولدين إبراهيم وزكى وهما من أصدقاء صبانا. وقد حصلا على الابتدائية وأمضيا سنوات عقيمة فى الثانوية. كانا مشغوفين بالغناء، ويسترسلان فيه كلما وجدا فرصة أو تشجيعا منا. وإبراهيم قصير القامة قوى البنية لا قبح فى وجهه ولا جمال، وزكى رشيق مليح ورث عن أمه خير ما فيها. وربما شاركانا بعض الشيء فى اهتماماتنا الوطنية، على حين اقتصرت ثقافتهما على حفظ الأدوار والتواشيح القديمة ثم مضيا مع الزمن يحفظان أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب. ومع الأيام تميز كل منهما باتجاه فنى خاص، فمال إبراهيم إلى الأغانى الجادة، فى حين تبلورت موهبة زكى فى أداء الطقاطيق والمونولوجات حتى أطلق عليه حسن الفنجرى «الرقيع ابن الشيخ». ومالا معا إلى الالتحاق بمعهد الموسيقى الشرقى، واعترض الشيخ محمد بادئ الأمر، ولما يئس من نجاحهما فى الثانوية، وافق فالتحقا بالمعهد. وبعد التخرج اشتغل إبراهيم مطربا بصالة نعيمة الضباطى، وضمنت له حنجرته حياة عادية، فتزوج وأعاد من جديد حياة أبيه مع اختلاف المضمون. أما زكى فعمل «مونولوجست» فى صالة ببا. ولم تبشر حياته بقفزات غير

متوقعة، لولا أن أحبته سيدة غنية. ودفعت به قصة الحب إلى أغلفة المجلات الفنية، وزكى منظره الحسن نجاحه المثير. توجت قصة الحب بزواج شرعى، وأتاح له ثراء زوجته أن ينشىء «الفونتانا» أجمل ملاهى شارع الألفى فى وقتها. قام مبناه من طابقين، الأول كافيتريا حديثة والأعلى ملهى ليلى للغناء والرقص، وأحاطت بالمبنى حديقة جميلة بارعة الجمال. وأصبح زكى مدير المحل، بالإضافة إلى بعض المونولوجات يلقيها آخر الليل من مختارات ألفت لأجله ولحنت بإشرافه. وقد نجحت وذاعت على ألسنة السكارى وأهل الانبساط من الجنسين. ولم يقسم له أن ينجب كأخيه إبراهيم فركز عنايته بذاته، وسهرنا نحن الأصدقاء فى الملهى ورأينا صاحبنا وقد خلق من جديد فى صورة غاية فى الجمال والأناقة. قال حسن الفنجرى:

ـ انظروا إلى مفعول الغذاء الطيب!

وعند انتهاء الحرب العالمية الثانية توفيت زوجته فأصبح من كبار أغنياء البلد، وقال صديقنا عبد الخالق:

ـ صدق من قال: قيراط حظ ولا فدان شطارة! وكان تنكره لأسرته، والديه المسنين وأخيه إبراهيم، وصمة فى جبينه لا تمحى أبد الدهر. ليس كتنكر أحمد شقيق عبد الخالق لأسرته، فأحمد كان فى الواقع فقيرا وكانت زوجته هى الغنية وشاءت أن تستأثر به وأن تكره أسرته من أول يوم. أما زكى فقد آلت إليه ثروة خيالية وظل تنكره لغزا ووصمة. وما لبث أن عشق راقصة اشتهرت بجمالها فتزوج منها. وبدا سعيدا مرحا رغم أنه لم ينجب، وشيد فى الهرم قصرا ضرب بجماله المثل وعاش عيشة الملوك. ولم يجد جديد من ناحيته حتى ترامت إلينا أنباء غامضة عن مرض ألم به. وتأكد الخبر لما سافر إلى الخارج للعلاج. ورجع بمرضه دون شفاء، ولم يجىء ذكر للمرض صراحة ولكنه كان يوصف تارة بالخطير وأخرى بالخبيث. وأخبرنا

إبراهيم بأنه ـ أخاه ـ حرم من أحب الأشياء فى الدنيا إلى نفسه : الجنس والطعام! قال إبراهيم بشماتة :

ـ غير مسموح له إلا بمرقة النابت!

ولم تتحمل زوجته الجميلة عشرته طويلا فاضطر إلى تطليقها، وأصبح وحيدا بلا عزاء. وفى تلك الأيام رأيته مرة فى «الفونتانا» وهو يشرف على إدارتها كنوع من التسلية. والحق أنى فزعت لمرآه. لم أر رجلا ولكنى رأيت جثة محنطة. جثة محنطة تلتوى شفتها راسمة امتعاضا أبديا احتجاجا على عبث الأقدار به. له من المال ما يمكنه من امتلاك أى شىء، وليس له من الصحة ما يمكنه من الاستمتاع بأى شىء، وانساق مع حظه إلى الهدف الوحيد الباقى له وهو الجنون!

فقد حصر كل اهتمامه بقبره. نعم قبره. حتى لو استنفد ذلك ثروته الطائلة. اشترى أرضا فى مدافن الخفير لعلها أكبر أرض خصصت لمدفن فى مصر. وغرس بها حديقة غناء تصلح أن تكون حديقة عامة. أما القبر نفسه فقد شيد ظاهره وشواهده من الرخام النفيس المنقوش بآيات الرحمن. وبلغ اتساع منامته حجرة استقبال واسعة، وطعمت جدرانه بالرخام وغطيت بالسجاجيد الفارسية، وركبت فيه أنابيب للإنارة تستمد طاقتها من مولد كهربائى وأوقف على المدفن وخدماته مالاً يفى بالإنفاق عليه أبدا الدهر. قلنا إنه لا ينقصه إلا أن يحنط جثته ويدفن معها متاعه من الجواهر والطعام والثياب! أراد ألا يرثه أحد من الشامتين ولا أدرى مدى توفيقه فى ذلك. وفى الخمسينات مات زكى كناشة فلم يحزن لموته أحد. وقال صديق :

ـ لم أعرف فى حياتى من هو أقسى منه!

فأجاب صوت :

ـ الحياة نفسها تبدو أحيانا أقسى وأمر.

* * *

آل عـديلـة الحـــرة

آخر بيت فى الجانب الآخر فيما يلى آل العلوى. عرف البيت باسم صاحبته عديلة الحرة، أما اسمها فعديلة وأما لقب الحرة فأضيف إليها على سبيل المدح المقصود به الذم. ويقيم فى البيت عديلة ربته وابنتاها نبيلة وسناء. ويروى عم فرج تاريخ الست فيقول: إنها كانت زوجة لرجل يدعى عبد الله سنان كون ثروة لا بأس بها من السمسرة، فشيد لها هذا البيت وكتبه باسمها، وأنجب منها نبيلة وسناء. وقبيل انتقالنا إلى الشارع بعام واحد سافر الرجل إلى بر الشام لشأن من شئونه، وهو من سلالة شامية، ثم لم يعد وانقطعت أخباره. ويفسر عم فرج اختفاء الرجل بأن عديلة كانت فائقة الجمال والدلال، وأن سلوكها لم يكن فوق الشبهات، وعجز زوجها عن كبحها فهرب!

ـ تجنب مواجهتها بالطلاق خوفا من طول لسانها، والظاهر أنها كانت تعرف من أسراره ما لا يحب أن يعرف.

على أى حال اختطت لنفسها طريقا جديدا غير معهود فى شارعنا فانطلقت فى تحررها إلى آخر المدى. وأصبح بيتها مع الزمن ملتقى الأعيان من العباسية الشرقية، يتسللون إليه بليل كالزنابير محملين بالهدايا، فيقضون فيه أطيب الأوقات مع ربة البيت ثم معها ومع ابنتيها الجميلتين. وكنا نراها أحيانًا تسير فى الشارع بمفردها أو بصحبة نبيلة وسناء، فى هالة من التبرج الفاقع فينتزعن الأعين من المحاجر ويثرن عواصف من الأقاويل. وكنا نحملق فى نبيلة وسناء بأعين مترعة بالجنون ولكنهما لم تعيرانا أدنى التفات. وعلى ذلك تساءلنا أين الشرطة؟.. ألا تعلم بما يجرى فى هذا البيت؟! وقيل لنا إن الشرطة

تعلم أكثر مما نعلم، وأن حماية الأعيان مبسوطة على البيت ومن فيه، بل وقيل إن الباشا وكيل الداخلية ـ وهو من سكان العباسية الشرقية ـ من عشاق البنت الصغرى رغم فارق السن الهائل بينهما. وطرح الموضوع للمناقشة فيما بيننا فتساءل عبد الخالق:

ـ هل يليق بنا أن نقبل هذا الوضع الشائن فى شارعنا؟

فقال عزت بشهامته المعهودة:

ـ إذا تناومت الشرطة فنحن الشرطة.

ورحنا نقذف البيت بالطوب فنكدر صفو سهراته الخيالية. وجاء رد الفعل سريعا فتولى حراسة البيت نفر من حرافيش الوايلى لا قبل لنا بهم، ولم يكن فى مقدور عزت التصدى لهم. وعلى ذلك تجاهلنا بيت الحرة على مضض مشاركين سكان الشارع سخطهم الصامت. وفى أواسط الثلاثينات غادرت الأسرة بيتها كأنما قد ضاق عن نشاطها المتصاعد، فارتاحت الأنفس لذلك واعتبر يوم رحيلهم من أيام السعد. ولم نعد نسمع عنهم خيرا أو شرا، حتى رأيت سناء فى تاريخ لاحق بانتهاء الحرب العظمى الثانية، فى حديقة لبتون بصحبة ضابط جيش. لم تبد فى مظهرها القديم ولكنها رفلت فى احتشام أضفى على صحبتها للرجل روح الزوجية. وقد عجبت لذلك وتحيرت، ولكن الأيام أيدت ظنى، وعرفت من أكثر من مصدر أنها تزوجت من الضابط بعد قصة حب، ثم علمنا بعد قيام ثورة يولية أن ذلك الضابط كان من القلة التى قررت الثورة محاكمتها، وقد قبض عليه وهو يحاول الهرب إلى الخارج وقدم للمحاكمة وقضى عليه بالسجن. وظل البيت يعرف ببيت عديلة الحرة كأنما هى تسمية تاريخية كرسها التاريخ. وحافظ على اسمه حتى بعد أن أقام فيه الشيخ الذهبى مدرس اللغة العربية والدين بمدرسة فؤاد الأول. وهو فلاح محافظ وزوجته فلاحة لم يغير انتقالها إلى العاصمة من طباعها أى تغيير. وعرف الشيخ الاسم الذى اشتهر به بيته

بالمصادفة. فقد جاءه زائر من البلد وسأل عنه فى شارع العباسية فأشاروا إلى موقع البيت ورددوا على مسمعيه اسمه. وأخبر الزائر الشيخ الذهبى ببراءة. وتحرى الشيخ عن الأمر حتى ألم بأطرافه وثار غضبه. ويوما دخل الشيخ الفصل فوجد أن مجهولا من الطلبة قد كتب على السبورة بأصبع الطباشير وبالخط الفارسى: «عديلة الحرة». واحتقن وجه الشيخ بالغضب وكان شديد الغضب، والتفت نحو الطلبة متسائلا فى تحد:

- من ابن العاهرة الذى كتب هذا الاسم؟

ولم ينبس أحد فقال ودفقات غضبه فى تصاعد:

- قد تكون عديلة امرأة سوء ولكنها يقينا. أشرف من أم من كتب هذا..

وبدأ الدرس.

وقد عاصرت من ألوان الفساد بألوانه وطبقاته وأنواعه ما يجعلنى أذكر عديلة وابنتيها كما أذكر أحيانا مكتشف النار فى تاريخ الحضارة بالمقارنة بغزاة الفضاء.

إذا شدنى الحنين اليوم إلى زيارة العباسية فسرعان ما تتكشف لى عن عالم غريب لا عهد لى به. لا الشرقية شرقية ولا الغربية غربية، اندثرت الحقول والحدائق وتوارى اللون الأخضر. عمارات متراصة متلاصقة تنوء بأثقالها بلا لياقة أو جمال، شوارع جانبية مكتظة بالأطفال والصبيان، مختلف أنواع المركبات فى سباق جنونى، ضجيج هائل يقتحم الفضاء مغلفا بالغبار، أكوام القمامة تترامى كالتلال فى الأركان، المواقع الواطئة غريقة فى مياه المجارى، الغضب والعنف والسباب ينفجر فى الآذان، ولا أعرف أحدا ولا أحد يعرفنى، وأتساءل، وأتساءل فى حيرة بالغة: أين المغانى التى شهدت أعذب المودات وأجمل قصص الحب؟!

وإنها لنقمة أن تكون لنا ذاكرة ولكنها أيضا النعمة الباقية.

أسعد الله مساءك

اليوم أبدأ حياة أخرى، حياة التقاعد. عمر طويل تقضى فى خدمة الحكومة أفنى شبابى وكهولتى وأطل بى على الشيخوخة. وأظلنى بولاء للملك وأربعة رؤساء فلم يشعر أحدهم لى بوجود لا يخالجنى أسى كبير لأنى ما انتقلت إلا من درجة من الضجر إلى أخرى أسوأ وأشد. الذاكرة تعذبنى والخيال، فلعله من حسن حظ الحشرة الهائمة فى القمامة ألا يكون لها ذاكرة أو خيال. بل الأغلب أن الحشرة تهنأ بالقمامة. بالقياس إلى لا فارق يذكر بين مسكنى البالى وبين القمامة. إنه لظلم وأى ظلم ألا أكون اليوم فى بيئة جديدة تزهو بالنقاء والنضارة، وألا أكون شجرة تنعم بالأوراق والأزهار والثمار. وأذكر أسرتى فيتقبض وجهى من المرارة والسخط، على أن وقت المحاسبة قد مضى وانقضى. لا أريد أن أصدق أننى عايشت هذه الحجرة منذ عهد التلمذة وحتى عهد التقاعد. هيئتها ومحتوياتها لم تكد تتغير إلا قليلا. هذا السرير الخشبى ما أصلبه، سرير معمر لم تنل السنون من صحته وقوة احتماله، لا يحظى أثاث هذا العصر بمثل هذه القوة المتحدية. وصوان متوسط الحجم ذو ضلفة واحدة تشغلها مرآة من أعلاها إلى أسفلها، طراز منقرض تماما. ومكتب صغير قائم بين النافذتين متين القوائم مقشر السطح راجعت فوقه دروسى الابتدائية والثانوية والجامعية. وكنبة تركية طويلة جديرة بالمتاحف. وسجادة فارسية - هدية البكالوريا - هى المتاع الوحيد المحافظ على رونقه. لم تعد تعرف هندسة البناء الحديثة حجرات بهذا الاتساع

ولا أسقف بهذا الارتفاع ولا أرضية مركبة من البلاط المعصرانى. العمارة نفسها آن لها أن تحال إلى التقاعد، وشارع أبو خودة لم يعد له من مضمون الشارع إلا اسمه. نفايات الدهر الغليظ، تتوارى فى أركانها المظلمة أجمل الذكريات، ولا جديد ألبتة إلا السكان الجدد ينفثون الغربة والابتذال والاستفزاز. وحيد فى شقة كبيرة، من حجرات أربع وصالة تتكون يغزوها التراب، وتقطنها معى الصراصير والفئران. أتصدى لكل شىء دون جدوى، للغزاة والوحشة والكآبة، وللذكريات الحلوة أيضا، وألعن الذاكرة والخيال. أقول لنفسى ـ خاصة وأنا أنظف حجرتى وأرتب فراشى إننى كنت يوما مناط الأمل وقطب العناية المركزة فى تلك الأسرة الغابرة. وكنت أيضا الضوء الذى ترف حوله فراشات جميلة. إى والله فى غاية الجمال والعذوبة والجنس. وحلمى كان حلما متواضعا فى متناول كل شاب. أن أتزوج وأستقر فى أسرة بين أبناء. لم يناوشنى طموح كبير فأشقى به أوله. عرفت الطموح عند أصدقاء وزملاء، منهم من وصل وتألق، ولم يكن حلمى إلا الخطوة الأولى فى طريقهم الطويلة فكيف خاب السعى وانقلب الهدف، كيف أجدنى اليوم وحيدا بين يدى التقاعد، لا أنيس لى إلا الراديو والتليفزيون والذكريات المعذبة، والحوار الذى يدور مرارا وتكرارا بينى وبين أشباح أسرتى الزائلة، أقول لهم لولاكم لكنت وكنت فيقولون لى ولولا الحظ لكنا وكنا، هل أصر على الغضب؟ هل أسلم للشفقة والرحمة؟ ولا أجد أخيرا ما ألعنه إلا الحظ. ومع العصر وشدة الحر نادانى المقهى. أى منطلق فهو خير من سجن هذه الشقة المنفرة. لم يبق لى أحد من أهل الزمان الأول، فمن مات مات، والقلة الباقية تغيرت مشاربها ومواقعها فى المدينة الكبيرة. أما الطريق بين أبو خودة ومقهى النجاح فى ميدان الجيش فقد رسخت هيئته الحديثة بطواره المحطم وتياره البشرى المصطخب وأصواته المرعدة المزمجرة ومركباته المتنوعة المتلاصقة المتدفقة

وغباره المنتشر، رسخت هذه الهيئة فجعلت من أناقته القديمة وسماحته الزائلة وهدوئه الشامل حلما من أحلام اليقظة. وأجد حمادة الطرطوشى فى مجلسه على رصيف المقهى فى انتظارى. سبقنى إلى التقاعد بخمس سنوات، وأغرانا بالتعارف تقارب السن والوحدة. وهو ذو شيخوخة متجعدة متفجرة تمادت فى احتلال القسمات والصوت حتى ليبدو أكبر من سنه، رأس أبيض كالشمع، وحاجبان ساقطان على جفنيه كالأسلاك، ونظرة منطفئة ذابلة مع ثرثرة ومرح. ووحدته قاصرة على الأصحاب، عدا ذلك فهو رب أسرة وأب لرجال ناجحين ينتشرون فى شتى الوزارات، فلم يعد يشاركه بيته بشارع الشرفا إلا زوجته. استقبلنى بابتسامة فضحت خواء فمه ونمت عن حرارة المودة التى تجمعنا وتمتم:

- أهلا، هذا أول أيام التقاعد، ربنا يطول عمرك.

فقلت متصبرا:

- كآبة عابرة ليس إلا.

- بالصراحة كان وقعه على أشد.

- إلا ترى أن هموم الحياة اليومية تغطى على ترف العواطف الرومانتيكية؟

فلوح بيده المدبوغة وقال:

- صدقت يا عم حليم، والمعاش على أى حال أقل من المرتب.

- والمرتب لم يكن يكفى، وبين أصحاب المعاشات وضحايا المجاعة فى أثيوبيا خطوة أو خطوتان..

ضحك ضحكة صامتة وتساءل بنبرة جديدة:

- هل أطلب النرد؟

فقلت دون حماس:

ـ الوقت أمامنا طويل طويل . .

فقال بعطف :

ـ مشكلتك الحقيقية هى الوحدة!

ـ أى نعم، كانت الوزارة تشغل نصف العمر .

ـ اسمع نصيحتى، لا تمكث فى البيت إلا للضرورة القصوى . .

فقلت متفكرا :

ـ الوحدة ليست فى البيت فقط ، إنها هنا أيضا . .

وأشرت إلى صدرى . . فقال باسما :

ـ أنت لا تسلو أبدا عن حلم الزواج القديم!

فتساءلت بأسى :

ـ هل فاتت الفرصة؟

ـ الفرص بيد الله سبحانه ولكن هل فيك الرمق المطلوب؟

فقلت بحرارة :

ـ يجمعون على أن حالتى العامة أصغر من سنى بكثير، وأحيانا يخيل إلى أنى رددت إلى فترة المراهقة . نجوت حتى اليوم من الأمراض المزمنة المتداولة . لم أخبر من الأمراض إلا نزلات البرد . أسنانى كاملة ومتينة رغم حشو أربعة ضروس، ولم أحتج إلى نظارة رؤية أو قراءة علما بأن ولعى بالقراءة هبط إلى حد أدنى فى السنين الأخيرة، وما زال السواد له الغلبة فى السيطرة على رأسى، ولكننى لا أحب التنويه بذلك كثيرا خوفا من الحسد، فالحق أن الثقافة لم تقتلع من باطنى بعض الرواسب القديمة . وقال حمادة الطرطوشى :

ـ إن وجدت فرصة فأهلا وسهلا، وإن لم تجد فارض بالمقسوم، وإن

تكن تحسد المتزوجين أمثالى فهم أيضا قد يحسدونك، والله ما هد حيلنا وقصر عمرنا إلا الحياة الزوجية والثانوية العامة!

ما أكثر ما سمعت ذلك. يدخل فى أذن ويخرج من الأخرى. أجل لم أحمل هما من تلك الهموم. وإلى ذلك كله عشت منذ رحيل الأسرة بلا مطبخ، بالسندوتش والمعلبات، ومع الراديو والتليفزيون، ولكنى لم أكف أبدا عن التوق إلى الزوجة والأولاد. حتى الساعة لم أكف. وأخيرا وجدت الخلاص فى النرد. وتظل ساعة الرجوع إلى العمارة المتهرئة بشارع أبو خودة أثقل الأوقات كآبة. على مدى صلتى بحمادة الطرطوشى اطلع على الكثير من خفايا حياتى. ولما حكيت له حكاية ملك سألنى:

- ما عمرها اليوم؟

- تصغرنى بعام أو عامين على الأكثر.

- وحالها كامرأة؟

- رأيتها مرات من بعيد وأنا ماض إلى المقهى فى شرفة شقتها، يخيل إلى أنها مازالت امرأة..

فقال جادا:

- أرملة، ابناها فى السعودية بصفة دائمة، وحيدة مثلك وقريبة لك، زرها يا أخى وجس النبض..

ضحكت لغرابة الفكرة ولكنها عششت فى رأسى مذ اقترحها. وتخيلت عنها كل ما يستطيعه الخيال. وقبل ذلك لم تكن تغيب عن خواطرى وخاصة عند اشتداد أزماتى الجنسية. تزورنى وأنا أتأهب لاستقبال النوم، ويدور الحوار وتحدث الأفعال ولكن مع الفتاة القديمة، فتاة القلب والأحلام الزوجة التى أعدتها الطبيعة لى وأعدتنى لها فيا للخسارة. لا أقول إنه حب فذ تحدى جميع تلك الأعوام. مات الحب فى وقته، شهدت زفافها كالغريب، ولكنها الوحدة والجوع. وألعن

تقلبات الزمن التى اجتاحت وطنى والعالم وغزتنى فى عقر دارى. وأصب لعناتى على موطنى بين أبو خودة وميدان الجيش. وأتساءل من قبلى ولد ونشأ وتقاعد فى حى واحد وشارع واحد وشقة واحدة بل وحجرة واحدة، كلما هم بالتحرك قبضت عليه الأحداث. وعداوتى تتصاعد بصفة خاصة نحو مدخل العمارة القديمة، واسع مظلم نهارا وليلا وبئر السلم مكتظ بالنفايات، السلم متآكل ذو لون كابى مستمد من القذارة، عمارة بلا بواب، وشقق بلا خدم، رغم شقائى بالتنظيف والترتيب فرائحة ترابية تقتحم خياشيم الداخل، ووراء ذلك كله يجثم التضخم والانفتاح والحروب والنظام الاقتصادى العالمى، وما كان لى من طموح أكثر من أن أتزوج من ملك ابنة قريبى بهاء أفندى عثمان. قال لى حمادة الطرطوشى ذات مرة:

ـ لا أتصور أن الوطن سيخرج بسلام من أزمته.

فقلت له وأنا من القرف فى نهاية:

ـ دعنا فى أزمتنا نحن!.. عمرنا يحسب باليوم وعمر الوطن بالقرون..

إنه محب للأحاديث العامة على حين أن همومى الشخصية دفنتنى تماما. وأنظر إلى أطلال الشقة وأتساءل أحقا كانت هذه الأطلال مهد الدفء والحنان والكرامة؟! أمى بعد إنجاب فكرية وزينب أنجبت ستة ذكور ماتوا جميعا فى الطفولة ثم أنجبتنى أنا. مجدد الأبوة والأمومة ولعبة القلبين.. بل لعبة أربعة قلوب. وهل أنسى حب فكرية وزينب؟ يشتركن جميعا فى إعدادى لصحبة أبى إلى المقهى للتسلية والفرجة. أمى تمشط شعرى، فكرية تلبسنى بدلة البحار، زينب تلمع لى الحذاء، يخرج أبى من حجرته متأنقا غاية الأناقة، بدلة آخر موضة، رائحة زكية يقطرها له الحلاق، عصا ذات مقبض عاجى يلقى على نظرة استحسان من نظارته المؤطرة بالذهب ويقول لى باسما:

ـ تفضل يا حليم بك . .

اسمه عبد القوى البيه، والبيه فى الحقيقة اسم لا لقب ولكنه يضفيه على لقبا، رغم أن جدى البيه كان فطاطريا فى شارع الشيخ قمر . وفى المقهى يطلب لى الدندورمة، ويحدث أصحابه عن ذكائى المبكر، ويقول :

ـ له صورة تذكرنى بسعد زغلول فى صباه!

الحق أن لى عينين تريان أكثر مما ينبغى . تجمعنا المائدة جميعا . ها هى الأسرة بكامل هيئتها . الأب والأم وفكرية وزينب . أحب الجميع ولكن لى عليهم ملاحظات وتحفظات . وجه أبى لا يعجبنى وبخاصة إذا نزع نظارته المذهبة . وجه نحيل ممطوط مجوف بعض الشيء، صغير الأنف بصورة مضحكة، ضيق العينين كأنهما مشروع عينين، بارز الجبهة، صورة منفرة . أمى صغيرة الجسم حسنة الطلعة، ذات عينين واسعتين جميلتين وشعر ناعم وأنف دقيق مستقيم، وإن اعتور صوتها خنف ونبرة احتجاج دائمة . أما سوء الحظ فقد تركز فى فكرية وزينب اللتين خلقنا صورة طبق الأصل من وجه أبى الدميم . ودون أى فائدة ورثت أنا وجه أمى المليح . ومن ذلك التكوين المتنافر تربع سوء الحظ على عرش أسرتنا دون منازع . أنا السعيد الوحيد ولكن زحف الكدر . تبدى القلق واضحا فى سلوك أمى وكلامها . متشائمة دائما من ناحية المستقبل . يتفجر قلقها مع مرور الأيام .

تقول لأبى :

ـ كان يجب أن يتعلما فى المدارس . .

فيقول :

ـ لتجر مشيئة الله كيفما شاء أما أنا فلا أبتذل كرامتى . . علاقة أبى وأمى حسنة جدا، وعلاقة فكرية وزينب بأبى على أحسن حال،

أما الأم وفكرية وزينب فلا يصفو بينهن جو إلا فيما ندر. كل واحدة منهن على حدة غارقة فى مخاوفها، وينعكس ذلك توترا دائما فيما بينهن وخصاما لغير ما سبب. نقار دائم وكدر شامل واتهامات مكبوتة.

ويوما يقول لى صديقى على يوسف ـ زميلى وجار ـ بثقة ويقين:

ـ أبوك غنى يا بختك!

فأسأله بدهشة:

ـ لماذا؟

ـ منظره يؤكد ذلك، إنه أوجه أب فى شارعنا..

صدقت ذلك بعد مقارنة سريعة بين أبى ويوسف أفندى والد صديقى، وقال على مواصلا:

ـ ومصروفك اليومى يا عم!

مصروف أقرانى لا يتجاوز نصف القرش أما مصروفى فقرش كامل. أبى يصحبنى معه أحيانا إلى المقهى أو السينما، فأنا ابن عز كما يقول صديقى على. وعمارتنا ـ فى ذلك الزمان ـ فى طور الشباب وهى أحدث من عمارة على يوسف وبهاء عثمان والد ملك. يسعدنى والله أن أكون ابن عز ومن الأغنياء، وهل فى الدنيا ما هو أجمل من الثراء؟ وأقول لأمى:

ـ نحن أغنياء.

فتقول لى بصوت لعله العنصر الوحيد القبيح فيها:

ـ لا ينقصنا شىء والحمد لله.

ـ لنا أملاك؟

فتضحك قائلة:

ـ لا أملاك لنا.

ـ إذن من أين يجيء ثراء أبى؟

ـ من ستر ربنا يا ابنى.

الظاهر أن الأثرياء لا يطلعون الأبناء على حقيقة ثرائهم قبل سن معينة. حسبى أننا نأكل ما نشتهى، وفى رمضان يمتلىء الكرار بالنقل، وبالكعك فى عيد الفطر، ونستضيف فيه الخروف فى عيد الأضحى.

أبى غنى دون أدنى شك. ومن مزاياه أيضا أنه القارئ الوحيد فى أسرتنا، يداوم على قراءة الجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية المصورة. وعنه عشقت القراءة، وبعد أن شبعت من مجلة الأولاد طالبته بشراء القصص المترجمة. ها هى عادة جديدة تزف إلى حياتى، أن أعيش حياتين، حياة الواقع اليومى بين المدرسة ونقار النساء فى الأسرة، وحياة الخيال مع الأبطال من النساء والرجال.

ويسألنى أبى:

ـ ألا يلهيك ذلك عن المذاكرة؟

ـ ولكنى أنجح يا بابا..

فيقول لى بإغراء:

ـ عليك بالشهادة العليا.

ـ هل حصلت عليها يا بابا؟

فيقول ضاحكا:

ـ على أيامنا كانت الابتدائية هى العليا، ورغم ذلك حصلت على الكفاءة أيضا، الفرص على أيامكم أكثر، ماذا تريد أن تكون؟

ـ أريد أن أكون مثلك.

ـ ماذا تعنى؟

ـ أن يكون لى مثل بدلتك ونقودك وأن يكون لى بيت!

فيضحك عاليا ويقول:

ـ أنتظر مع الأيام إجابة أفضل!

ومثله أؤدى الصلاة والصيام. النساء يكتفين بالصيام ولكنى رجل. أبى لطيف حنون ويحب الدعابة. عندما يغضب يغلق عليه حجرته أو يرتدى ملابسه ويذهب إلى المقهى. تولت تلك الحياة وغاب أبطالها. فى باب النصر يرقدون فى قبر واحد نصفه للرجال والآخر للنساء. حجرتى كما كانت، وحجرة أبى الملاصقة لها معدة للمعيشة يزينها التليفزيون والراديو والمكتبة، وفى الصالة السفرة وأربعة مقاعد خشبية ودولاب شبه خال، بيع الأثاث القديم بأبخس الأثمان، وتعرت الحجرتان الأخريان تماما، لا مطبخ لى بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة، ثمة موقد غازى صغير أعد فوقه القهوة أو الشاى وأحيانا الكراوية، وأغتذى على الفول والطعمية وبعض المعلبات والبيض أحيانا، وهو غذاء الحكماء فى هذا الزمن النارى.

الوحدة تتحدانى وأنا دائب على مقاومتها بالمقهى والتليفزيون، ندرت قراءاتى للحد الأدنى فى أعقاب معايشة طويلة لعمالقة الفكر فى وطننا ونخبة من المترجمات الممتازة. اكتسبت سعة فى الأفق واستنارة لا بأس بها، ولكن لم يؤثر شىء فى عقيدتى الأساسية، أو لم يؤثر فيها لدرجة التخلى عنها، ما أزال أصلى وأصوم، وأنتظر النهاية بالرغم من أننى لم أضف إلى الحياة جديدا ولم أحدث فيها شيئا ذا بال. وأعانى كثيراً من الملل والكآبة. وأضيق بالمكان لحد الموت. وتطاردنى مخاوف كثيرة من المرض والموت. أخاف أن تدركنى علة فلا أجد من يأخذ بيدى، و أن يوافينى الأجل فأترك فى مكانى حتى تنم عنى رائحتى. أقول لنفسى اطرد عنك الوساوس فمن الغباء أن تحمل الهم قبل وقوع القضاء. الطرطوشى يرانى أهلا للحسد. الماكر الأزرق يخزى العين عن

حسده. أبناؤه غاية فى الروعة. يمدونه بالعون أول كل شهر. وعندما يجيء أجله سيزدحم بيته بالنساء والرجال ويلعلع الصوات فيترامى إلى أنحاء العباسية، وينشر نعيه فى الأهرام، يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية. انتقل إلى جوار الله المربى الفاضل، وتمضى وراء نعشه جنازة محترمة يشترك فيها أصدقاء الأبناء والأصهار فيفوز الرجل الطيب التافه بجنازة من الدرجة الأولى. حليم بك لن ينشر له نعى على الإطلاق. سينشر نعيك فى صفحة الحوادث. دع حمادة يحسدك كيف شاء. إنه لا يعرف الوحدة، ولم يشم رائحة التراب فى مأواه، ويغتذى باللحوم رغم تساقط أسنانه، نسى الفراش البارد المحروم من دفء الزوجة، لا يعرف حرمان الجنس والأبوة، لولا أنه لم يبق لى من أنيس غيرك لدعوت عليك. التليفزيون أنيس أيضا وأى أنيس، عالم السحر و الخيال والنساء، حتى الإعلانات موجعة لقلب المحروم. حياة تافهة ولكنى لست بالتافه. حتى أمس كنت المراقب العام للعلاقات العامة بوزارة التربية والتعليم. كان من الممكن أن أحقق أحلامى ولكن فى ظروف أخرى. ما جدوى ارتفاع المرتب قيراطين إذا ارتفع التضخم أربعة؟! ليست الأسرة وحدها المسئولة ولكن العالم كله باقتصاده وسياسته. تجنبت العالم ولكنه أبى أن يتركنى وشأنى. أين السباك ليصلح صنبور الحمام؟ ترى ما أجرته اليوم؟ أكون سعيدا لو نمت نصف اليوم ولكننى لا أنام أكثر من خمس ساعات. كى أريح نفسى من التفكير فيك يا ملك. مناجاتى الجنسية لك لا تنقطع. إحساس ما يلهمنى بأنك ما زلت صالحة. كلانا وحيد يا ملك. لم لا نفعل ما حرمنا سوء الحظ من فعله فى الزمان الأول؟ حرك الطرطوشى خاطر اللقاء وتركنى فريسة فى قبضته. تسلمه الخيال بشهوة جامحة. أن تضغط جرس الباب وتنتظر. تفتح الشراعة وتنظر. أنت.. ياه.. تفضل، كيف ذكرتنا؟ كنت مارا فقلت لنفسى.. أهلا وحديث عن الجهات

الأربع. وأدور وأناور وعينى مركزة على حلم الجسد. وهى تقرأ وتفهم فتصدر عنها إشارة خفية للعمل. وأنتقل إلى جوارها كالأيام الخالية. وتدعونى أكثر بالمقاومة الواهنة. ونهوى بقبضة الجنس الناعمة على الكآبة الغاشية. وتتراكم الأفعال الجميلة الشائنة. آه لو تتحقق الأحلام يا ملك. ثمة أخريات ألقاهن اليوم فى جنبات الحى معطرات بأريج الماضى الجميل، غيرهن الزمن بلا رحمة ولم يبق من ماضيهن إلا الاسم. بتن غرباء رغم ابتسامة عابرة. فضليات وأمهات. لولا الظروف العاتية لاتخذت إحداهن زوجة صالحة. ذهب الشعر واختلت أوزانه. اليوم أغير الملابس الداخلية مرة واحدة فى الأسبوع توفيرا للغسيل والكى. لا أتناول الكباب إلا فى المناسبات. ينسى المتقاعد فى تقاعده كما ينسى الميت فى موته. فى الزمن المجيد سرت اختيالا بجناحى الشباب المورق. الأمهات قلن لأمى حليم لملك، حليم لبثينة، حليم لرباب، حليم لبيسة. أمى غارقة فى مأساة ابنتيها. السنون تمضى بلا أمل. جميع البنات يتزوجن إلا فكرية وزينب. لا الغرباء ولا الأقارب يقتربون منهما. أقول لنفسى مستغربا ما أكثر الزوجات الدميمات. ألا يكفى ثراء أبى لسد الثغرة؟

وأنفض عن نفسى نكد الأسرة وأسير اختيالا بجناحى الشباب المورق. وتهل على بيتنا فى شتى المناسبات ملك وبثينة ورباب وبيسة كالأقمار فى صحبة أمهاتهن. وتتفجر فى كآبة شقتنا بروق الإغراء والدلال، وتتجاذب نظرات الرغبة والأشواق، ولا يخلو الأمر من كلمة عذبة أو لمسة لطيفة أو خطف قبلة فى غفلة من الرقباء. حب مشاع لا يعرف التخصص. فى حضرة كل واحدة أتناسى الأخريات ولكن ملك تمتاز أيضا بقوة الشخصية والذكاء. ويوما سألتنى أمى وأنا فى المرحلة الثانوية أو الجامعية لا أذكر:

ـ من تعجبك منهن؟

فتفكرت مليا ثم قلت :

ـ لا أدرى !

ـ ولكن لابد من واحدة تتفوق بطريقة ما؟

فقلت وأنا أفكر فى ملك :

ـ إنهن متساويات لدرجة كبيرة .

فضحكت وقالت :

ـ أعز أمنية عندى أن أرى ذريتك ، ربنا يسهل لفكرية وزينب حتى يخلو لك الجو . .

وكانت الأحداث قليلة ، فمرة قابلت بثينة فى العباسية الشرقية وتبادلنا قبلة سريعة . وهدايا رمزية تبادلتها مع رباب . وبعض الرسائل التى تدس فى اليد مع بيسة . أما مع ملك فالنظرات تغنى عن الهدايا والرسائل ، أسعدنى أن أكون محورا ويدرن حولى . آه لو أجمعهن فى حريم واحد . ولكن ملك تزحف فى هوادة وعلى مهل فتغيب أضواء النجوم فى رحاب الشمس المشرقة . صورتها لا تبرح مخيلتى وهى واقفة فى حجرة الحريم بترام العباسية كعمود من نور فى فستانها الأبيض ، طويلة القامة مكتنزة الجسد فى غير إفراط ، ثرية الصدر بيضاء اللون فاحمة الشعر جذابة العينين . حائزة على البكالوريا ومتقنة لفن البيت . ومن الكلام المليح بين الأهل وتبادل الزيارات وترددى على بيتها باتت خطوبتنا حقيقة معترفا بها دون إعلان . من أجل ذلك عزف الخطاب عنها فتزوجت أخواتها وبقيت هى تنتظر . هى زوجتى وأنا زوجها وانحصر حلمى ـ بعد إتمام التعليم والتوظف ـ فى الزواج منها . وأخلو كثيرا إليها فى بيتها ، أنا مثل وعاء على نار يرتعش غطاؤه بقوة البخار المحتدم فى باطنه ، وهى ترنو إلى بعينين يقطر منهما الشوق والحلم . تبادلنى القبل وتصدنى عن العبث ، وتقول بلطف :

ـ لكل شيء حدود .

وأركز نظرى على فتنة الحاضر ولكنها تمد نظرها إلى المستقبل فتصارحنى :

ـ عليك بعد التوظف أن توفر من مرتبك مائة جنيه فينتهى كل شيء على خير . .

فأقول متفائلا :

ـ لن يضن بها بابا على . .

ـ والدك موظف كما كان أبى !

فابتسم فى ثقة قائلا :

ـ بل أكثر من ذلك . .

قصة حبنا معروفة فى الشارع كله . يمتلئ بها والداى كما يداعبنى بها على يوسف . ولولا مأساة فكرية وزينب لتضاعف رضاهما ، ولما كان ذلك التحفظ الذى قليلا ما يلوح على أبى وقليلا ما يخفى عند والدتى . ما الحيلة؟ ليس الحب وحده هو ما يستحوذ على ، ولكننى خلقت للحلال وحده . للحلال وحده يا للذكريات . الحلال والأبوة ، اليوم حمادة الطرطوشى يلاعبنى النرد مراهنا على ثمن القهوة . غلبته وربحت وسرعان ما تلاشى الحماس . ننظر الآن إلى ميدان الجيش تحت أضواء المصابيح القوية العالية . ما أكثر النساء والرجال والأطفال ، تاريخ الحضارة ممثل فى وسائل المواصلات من عربات اليد والكارو والبصات والترام . الأصوات من كافة الأنواع من حوار ومشادة وصراخ وغناء . يمضى حمادة قائلا :

ـ البلد . .

ويشرح وجهة نظره الشاكية الساخطة على كل شيء . يثقل عليه هدوئى فيقول :

ـ لا يهمك شيء . .

فأقول ساخرا :

ـ في ما يكفيني .

ـ ولكنك شاهدت عصورا وأحداثا وحروبا ورجالا . .

ـ يعني !

ـ لا يهمك إلا نفسك .

ـ هي أسوأ حالا من البلد .

ـ ولكنك مثقف .

ـ طظ .

فضحك عاليا ، وضحكته أقوى ما فيه ، ويقول :

ـ ابدأ حياتك الجديدة .

ـ ماذا تعني ؟

ـ أتقنت الإنجليزية ودرست الإدارة والسكرتارية في المعهد الليلي ، بوحي من الانفتاح طبعا ، فما عليك إلا أن تبدأ من جديد . .

ـ يلزمني فاصل من الراحة . .

ـ أخاف أن تعتاد التقاعد .

ـ لا تخف علي .

الإعلانات عن الوظائف الحرة كثيرة ومرتباتها فيما أسمع كبيرة لكنها لن تكفي لتغيير حياتي .

هيهات أن تمكنني من دفع خلو للانتقال إلى مسكن جديد في حي جديد . لكن مائدتي المقفرة ستثرى بالطعام الساخن .

قلت :

ـ صبرك وسوف ترى ما يسرك . .

فضحك قائلا:

- عليك أن ترفع رأس المتقاعدين عاليا.

أعطيت الصحة وحرمت من ثمارها ولكن على أن أحمد الله وأشكره على فضله دون تحفظ. هو المطلع على حرماني الطويل ووحدتي وهو الرحمن الرحيم. وقلت:

- لو كنت أعمق إيمانا لكنت أسعد حالا..

- الإنسان إما أن يكون مؤمنا أو غير مؤمن ولا وسط.

قلت بحدة:

- لا تكن حادا مثل سكين المطبخ..

فقال مقهقها:

- أنا لا أعترف بإيمان المثقفين.

أمسكت عنه. إنه ينثر سخطه يمنة ويسرة وينام ملء جفنيه. لكنه أيضا هو كل ما بقى لى فى هذا الزمن الأغبر. أين الأصحاب؟ أين الأحباب؟ من حجرتى سمعت أمى وهى تخاطب أم رباب أو بثينة لا أذكر.

- لا يجوز أن يرتبط حليم قبل أن يكمل تعليمه..

المنطق سليم ولكنه أحنقنى. وخفف من وقعه أن الكلام لا يوجه إلى أم ملك. وقبل ذلك سألتنى ملك:

- متى نعلن خطوبتنا؟

وكان الجواب:

- جو بيتنا لا يسمح بذلك قبل إتمام الدراسة..

واقتنعت بتسليم، وسلمت أمها بالواقع دون اقتناع. وعلى أى حال تزوجت بثينة ورباب وبيسة فى أثناء دراستى الجامعية. ولم تخل نفسى

من هزة تودع بها كل عروس ولكنها كانت عابرة واهنة وبلا أثر باق. الزواج أقوى من الحب وسحره خير وأبقى. وسرعان ما تتلاشى أحلام الصبا الوردية مثل رائحة زكية تعبر بها امرأة مسرعة. ولن أنسى ما حييت قول ملك فى ساعة تجل:

ـ لو تقدم لى أمير لرفضته، ليس لى سواك..

تبدت لى صادقة راسخة أقوى من أى حقيقة فى الوجود. كان حبا صادقا عظيما ويا للخسارة. وقد أحرز انتصاره فى يوم بهيج لا ينسى. فمن نافذة سكنها رأتنى وأنا أتبادل الإشارات مع بثينة.

وعند أول زيارة لنا مع أمها اقتحمت حجرتى ثم سألتنى فى حياء؟

ـ هل أهنئ؟

فسألت بدورى فى دهشة:

ـ على ماذا؟

ـ بثينة؟!

خجلت. نظرت إليها طويلا وهى تحدق فى بشجاعة وإصرار. ما أجملها وهى تطوى غيرتها فى قبضة كبريائها.

وتمتمت فى صدق وسعادة:

ـ لا أحد سواك يا ملك.

فرفعت صوتها لتسمع من فى الخارج:

ـ أعرنى كتابا من كتبك.

ـ قرأت مجدولين؟

ـ نعم.

ـ إليك آلام فرتر.

فقالت باسمة:

ـ هاتها .

منذ تلك اللحظة بدأت أنفض عن وجدانى فتنة الأخريات . وتركز حلمى فى الزواج . خلقت للحلال وحده . لست مثل صديقى على يوسف وبقية الصحاب . ذات ليلة قالوا فلنغامر ليكن لنا نصيب . أجل فلنغامر وليكن لنا نصيب! ذلك تاريخ قديم . اليوم وأنا سائر إلى المقهى أتساءل هل كتب على هذا المشوار المدوخ بين أبو خودة وميدان الجيش . لا حول ولا قوة إلا بالله . وأتخيل رجوعى عقب انتهاء السهرة فيبوح سرورى الوقتى المصاحب لى فى الذهاب . العباسية كتكوين عام تقرفنى مثل وجه كريه . يقولون مع ذلك إن الحياة تبدأ بعد الستين . حقا؟ شد ما أتوق إلى منظر جديد، جو نقى، موقع تكتنفه الأشجار، والحسان يخطرن مع الأصيل، وأحن إلى ناد حافل بالمعارف والتسلية، إلى دفء يشغل المرء عن هواجس المرض والموت . الشباب والمال هذه هى الدنيا . يتحدثون عن الإثراء المتفجر فى كل مكان، عن السهرات فى الشقق المفروشة، عن الأفراح الذهبية فى الفنادق، أين الطريق المفضية إلى هذه الدنيا؟ وتوجد قلة من الرفاق على قيد الحياة فأين هم؟ التقيت مرة بالدكتور حازم صبرى أمام الأميركين، تصافحنا، تبادلنا كلمتين على عجل، وافترقنا! من يصدق أننا كنا لا نفترق على مدى الطفولة والمرحلتين الابتدائية والثانوية؟ وانتخب الموت الآخرين . لم يبق إلا العجوز الطيب الذى يلوح لى بيده من مجلسه فى المقهى . واستقبلنى بجدية غير عادية وقال :

ـ أعرف ما بكر بك اليوم!

فجلست وأنا أتساءل :

ـ ما هو؟

ـ أزمة الجنيه والدولار!

فضحكت من قلبى ونادرا ما يحدث ذلك وقلت له :

ـ الله يخيبك يا عجوز!

فقال باهتمام :

ـ حلمت لك حلما غريبا!

ـ حقا؟

ـ رأيتك تركب حمارا وعلى رأسك بقجة كبيرة، ثم طوحت بالبقجة في الهواء وحثثت الحمار على الإسراع بكعبى قدميك فسألتك عن وجهتك فقلت لى إنك ذاهب لأداء العمرة . .

ـ ألديك تفسير؟

ـ طبعا . أمامك خير، ولكن عليك أن تطرح أفكار السوء أرضا!

على أى حال أحببته تلك الليلة كما أحببته ليلة اقترح على زيارة ملك. أعترف بأنه يؤنس وحشتى. وأنه لولاه لجننت من طول ما أحدث نفسى، وقالوا فلنغامر وليكن لنا نصيب. وقصدنا تافرنا. تعشينا على أنغام المندلين. ولأول مرة أشرب قدحا من النبيذ. طارت بى نشوة لم أعهدها فى حياتى من قبل. الخطوة الأولى المخاتلة الساحرة فى حياتنا بادرتنا بالنشوة الهازجة. انطلق الضحك من حناجرنا بلا سبب بين يدى فرحة الحياة المتدفقة. أزعجنا من حولنا من السكيرة القارحين. ولأول مرة أيضا نقتحم الدرب إياه. ومضى كل مع امرأة مستوردة. تعرت بحركة روتينية قبل أن أغلق الباب ورائى. وقفت مذهولا وقد هرب قلبى فى أعماقى. انغمست فى برميل من الثلج. ورمت تجمدى بنظرة شرسة وقالت «لست ممرضة يا أنت». ولما خرجت إلى الهواء الطلق المعبق بالبخور هاجت معدتى وماجت وقذفت بما فيها. وحدس أحدهم أن المرة الأولى لا تنجو من عواقب سيئة. ولكن الثانية لم تكن أفضل. قلت لاحظ لى مع الخمر ولا مع أولئك النسوة. أين النار التى تستعر فى حضرة ملك؟ ويئس على يوسف منى فقال لى :

ـ معدتك إسلامية وكذلك غريزتك . .

وآمنت بأنه لا أمل لى إلا فى الحلال والزواج . حقا إنه أمل متواضع ولكن تحقيقه يسير . الوظيفة والزواج . أى طموح آخر سرعان ما يتلاشى . كالحلم الذى ينسى عقب الاستيقاظ . الأصدقاء يحلمون بعوالم أخرى . الزعامة أو القيادة أو التفوق فى المهنة . منهم أيضا من ينتمون إلى الأحزاب ويجلسون إلى الزعماء . أما أنا فلم أجاوز أعتاب وظيفة توفر الرزق وزوجة صالحة وأبوة . وفى خضم العراك السياسى يقول لى أبى :

ـ نحن الموظفين موالى الحاكم .

فأنقل إليه ما يقرع أذنى عن إخلاص زعماء وتهاون زعماء فيقول :

ـ كلهم خنازير يتناطحون فى سبيل الحكم ، وإنه لمجنون الذى يخسر حياته أو مستقبله فى معركة زائفة . .

حديثه المفضل يدور دائما عن الوظيفة والموظفين والكادر سواء فى المقهى أم فى البيت . وأنا أجتهد وأذاكر وأنجح ولكن دون إفراط . لا أعذب نفسى بالتفوق وبلوغ المراكز المتقدمة . وأقرأ وألعب وأحب . وكل صديق شهد لحبيبتى بالجمال والاستقامة . وحبها يزداد مع الأيام قوة وعمقا . أحوم حولها كالمجنون بحب راسخ ورغبة جنونية . وتقطب فى بعض المواقف وتهمس :

ـ إذا تماديت فضحتنا !

فأهمس متشكيا :

ـ إنى أتعذب حتى الموت .

فتقول برجاء :

ـ لا يعجبنى اندفاعك أحيانا ، الحب بطبعه مهذب ، كن لى مثلما أنا لك . .

أهدت إلى صورتها فاحتفظت بها فوق قلبى . عشت أسعد الأزمان في رحاب حبها . لكنى عذبنى فيض الشباب وبخلاف على يوسف فشلت فى ترويضه . إنه أحب الأصدقاء إلىّ . نذاكر معا ، فى بيته مرة وفى بيتى مرة . أقصر منى فى القامة وأجمل منى فى الوجه ، وأذكى فهو يشرح لى أحيانا ما يغمض على ، ويفوقنى فى الاطلاع ، والانتماء السياسى . يقول بحرارة :

ـ سأعيش حتى أرى حياة جديدة لا الملك فيها ولا الإنجليز . .

ويحدثنى عن تيارات جديدة كالإخوان والماركسيين ومصر الفتاة ولكنه لم يتخل عن الوفد . وأحب بنتا يهودية فترة طويلة من العمر ولكنها اختفت فى مطلع الحرب العظمى الثانية . ولم أعرف له قصة حب أخرى فتوهمت أنه يعيش بلا قلب . ودخلنا معا كلية الحقوق فواصلنا المذاكرة المشتركة . وأقول للملك .

ـ لم تبق إلا أعوام معدودة ثم نلتفت إلى مستقبلنا . .

هى الوحيدة الباقية مع أمها رغم أنها أجمل أخواتها . تقول :

ـ ليتنى أكملت تعليمى . .

ـ الوظيفة تغريك أيضا؟

ـ لم لا؟

ـ ولكنى أريدك ست بيت . .

لا أجادل فى حق الفتاة فى التعليم والعمل ولكنى أفضل ست البيت ، يحكم على يوسف على بأننى محافظ أكثر مما ينبغى . يقول :

ـ أنت مثل معدتك لا تتطلع إلى الحياة الجديدة . .

فأقول :

ـ لا تغال ، حسبى أن أصنع أسرة أفضل من أسرتى . .

ونختم دراستنا فى العام السابق لنشوب الحرب . صرنا أستاذين كما

يقال. لم نبلغ الدرجات التى تؤهل للوظائف الممتازة. أنا بسبب اجتهادى المعتدل، وعلى يوسف لنشاطه السياسى. وكان على قريبا للأستاذ جعفر برهام المحامى فألحقه بمكتبه. وداخ أبى حتى ألحقنى بالإدارة العامة بوزارة المعارف. لولا أزمة فكرية وزينب لا عتبر رسالته فى الحياة منتهية على أحسن وجه. على أى حال سعد بيتنا على قدر ما يستطيع، وسعد أكثر بيت بهاء أفندى عثمان، بيت ملك. زيارتى له بعد الوظيفة حفلت بمعان جديدة. ودار الحديث فيها حول التدبير والمستقبل وتوارت المناجاة ورموز العشق. أقول كالمعتذر:

ـ الوظائف الممتازة نادرة جدا اليوم.

فتقول بمرح:

ـ مفهوم.. لا داعى للأسف..

ـ ثمانية جنيهات فيها الكفاية.

ـ وفوق الكفاية..

ـ ولن يطول وقت الاستعداد بإذن الله..

وتحنى رأسها بالموافقة موردة الخدين بالابتهاج. وأطالع قامتها الفارعة وهى تقدم لى القهوة فتسرى رجفة فى أعصابى كالإعصار. وأتساءل ترى لو تعلن الخطوبة ألا أستحق مزيدا من العطاء؟ ويتساءل حمادة الطرطوشى ساخرا:

ـ ما إن فرغنا من النرد حتى همت فى وديان بعيدة، فيم تفكر؟

ـ أتابع الحاوى الذى يعرض ألعابه أمام المقهى وسط حلقة من الصبيان، وأنظر بتقزز إلى ثعبان حول عنقه.

ويسألنى:

ـ أتحب الحواة؟

ـ أبدا.

يقول متنهدا:

ـ حفيدى مريض جدا..

ـ ربنا يأخذ بيده..

ـ هل تذكر بيت الشعر الذى يقول مطلعه وأولادنا مثل لا أدرى ماذا؟

أتذكر أننى قرأته ولكنى لا أحفظ الشعر..

ـ أنا اليوم أنسى ما يجب حفظه وأتذكر مالا فائدة فيه..

ـ وأنا مثلك.

ـ أحيانا أنسى بعض قواعد النحو الذى أنفقت عمرى فى تدريسه!

ـ نسأله الستر.

يقول ضاحكا:

ـ أنت فى حاجة إلى عروس مع الستر!

ارتجفت جذور قلبى بنغمة طالما ترددت على أوتارها منذ الزمان الأول. وأحيل أبى إلى التقاعد فى نفس العام الذى التحقت فيه بخدمة الحكومة. قرأت فى وجهه النحيل حيرة باهتة يداريها بابتسامة فاترة وما يشبه الحياء فقلت لنفسى أبى حزين. وأصر على ألا يغير نظامه اليومى، ينام عند منتصف الليل، يستيقظ مبكرا، يغادر البيت فى الثامنة ـ بدلا من السابعة ـ يعود ظهرا من مقهى الدواوين بدلا من الوزارة، يتغدى، ينام، يمضى مرة أخرى إلى المقهى، لكنه حزين. قررت أن أسرى عنه وأدخل إلى قلبه البهجة. هو أبى وصديقى ولا حياء بيننا فى الحق. سأقول له يدك على يدى لنذهب معا إلى بيت بهاء أفندى عثمان لنخطب ملك. هو يومى الموعود ويومك الموعود أيضا. لا جدوى من انتظار زواج فكرية وزينب ولو انتظرت إلى آخر الدهر. ولكنه مات فجأة. بلا مرض ودون توقع. فى الصباح الباكر وهو يحتسى القهوة عقب الإفطار. إنه القلب كما قرر الطبيب فيما بعد. اشتعل البيت

صواتا ولطما. بكيت مع النساء كالنساء. أحببته حبا لا يضاهيه حبى لأحد. وتحدانى موته وأنا فى سن يتعذر عليها الاقتناع بالموت. جاءت أيام بعد ذلك بأعوام وأعوام كنت أحزن لأننى لا أحزن. ويقول لى على يوسف معزيا:

ـ القلب أرحم موتة للميت وأقسى موتة على ذويه..

وضرب لى مثلا بأبيه. ما تصورت أننى سأعرف العزاء أبدا. وبرزت لى من الغيب حقيقة جديدة رغم أنها كانت تعيش معى طوال الوقت، فلم أدرك مدى فقرنا إلا بعد وفاة أبى. عشت دهرا فى نعيم من الآمال الكاذبة. أذهلنى أن أبى لم يخلف ثروة من أى نوع كان، سوى أربعين جنيهًا عهد بها إلى أمى هى تكاليف جنازته ودفنه. إذن ما سر البحبوحة التى سبح فيها بيتنا؟ المسألة بكل بساطة أن الدنيا كانت مطحونة بأزمة عالمية مررت بها فى الصحف دون اكتراث، وتميز أصحاب المرتبات الثابتة بدخل ثابت أصبح محور الحياة الاقتصادية على تفاهته. السلع رخيصة ولا تجد من يقبل عليها إلا الموظفون. بفضل ذلك أكلنا وشربنا ولبسنا وركبتنا الخيلاء ونحن نمرح فى القاهرة. وبنشوب ا لحرب مضى كل شىء يتغير، جاء الرواج، ومضت الأسعار ترتفع درجة بعد درجة، واسترد الملاك أنفاسهم، وانتفخت جيوب فئات ممن عرفوا بأغنياء الحرب، وتجهمت الدنيا للموظفين الذين تراءى لهم المستقبل طريقا مسدودة. وهكذا وجد الفتى المدلل نفسه رب أسرة بلا أسرة، مسئولا عن أم وأختين مزمنتين، لهم معاش ضئيل يفى بالكاد بكسائهن المتواضع، وله مرتب تضعف قيمته الشرائية يوما بعد يوم. كيف يمكن أن أتحدث عن موضوع خطوبتى؟ ومتى أستطيع أن أتزوج؟ وتم أول لقاء بيننا فى بيتها بعد أربعين أبى. أنذر جوه بالإحباط والمتاعب. مازال الحزن يصهرنى فاحترمت حزنى. لكنى لم أرها كسيفة البال كما أراها الآن. أقول بوجوم:

ـ كانت صدمة فى ألا يخلف أبى شيئا!

تتساءل بروح راكدة:

ـ والمعاش؟

ـ المعاش! أى معاش يا ملك؟

تمتمت:

ـ يبدو الأمر كالاغتيال.

ـ هو اغتيال حقا.

ـ هل لديك فكرة عن المستقبل؟

ـ مازلت أفكر وأفكر، يلزمنى وقت آخر.

تأججت أشواقى إليها لحد الاشتعال رغم الحزن الثقيل أم الحزن أمدها بوقود جهنمى؟ حتى الاغتصاب تمنيته ضمن خواطر دموية مجنونة. افترقنا على أسوأ حال من القلق. كيف ومتى أتزوج؟ هذا هو السؤال الملح المطارد القهار. زملائى فى الوزارة جميعهم متزوجون ـ يعجبون لا متناعى عن الزواج. كثيرون على أتم استعداد لتقديم عرائس. لن يكلفك ذلك مالا يذكر. ولكنكم جيل متمرد يفضل الحرام. أسمع وأتألم وأصمت. يا للعنة ما قدرت أبدا أن الحياة تدخر لى هذا المأزق. ويوما تدخل أمى حجرتى وتجلس إلى جانبى على الكنبة فى جلباب الحداد. نظرت بين قدميها وقالت:

ـ أرجو ألا أكون أخطأت يا حليم..

قلت غير متوقع أى خبر:

ـ خير!؟

ـ ما باليد حيلة.

ثم مواصلة بعد صمت:

ـ أم ملك زارتنى صباح اليوم، إنها صديقة عمرى، ولها الحق كل الحق فى أن تطمئن على ابنتها، اقترحت على إعلان الخطوبة، ساءلتنى عن المستقبل. قلت ها أنت حبيبتى ولا سر بيننا، وملك ابنتى ولن أجد لحليم خيرا منها جمالا وأدبا وقرابة، ولكن إليك حالنا وما أنت بالغريبة.

وفصلت لها الأمر تفصيلا ثم قلت:

ـ ماذا تكون حالنا لو تخلى عنا؟

ـ والعمل؟

ـ العين بصيرة واليد قصيرة.

ـ ألا يمكن أن نعلن الخطوبة إسكاتا لكلام الأهل والناس؟

ـ المسألة هى متى يستطيع أن يفتح بيتين؟

وقالت لى أمى بأسى:

ـ افترقنا، أنا آسفة وهى غاضبة فهل أخطأت يا ابنى؟

وقعت أسيرا للغضب والاقتناع. لا أجد منفذا للهجوم أو العتاب. الحقائق عنيدة كالصخور الصلدة. لا أستطيع أن أقاتل إلا شبحا اسمه سوء الحظ. رغم ذلك حنقت عليها دون وجه حق. يا لها من أيام قرف ونكد وبادرت بزيارة بيت حبيبتى فى بيت الوجد والورد طالعنى الجفاء لأول مرة. ملك متجهمة بلا إشراق ولا دلال. وتصدرت أمها المجلس وهى تتساءل فى تهكم مر:

ـ هل استأذنت والدتك قبل أن تحضر؟

أخذت وتغيرت فقالت الأم بانفعال:

ـ ما كنت أتصور هذا الختام الغادر.

قلت بصوت منهزم.

ـ إنها ظروف سيئة كما تعلمين.

ـ الله لا يرضى بأن يضحى شاب مثلك بحياته من أجل سوء حظ غيره، عل كل إنسان أن يتحمل نصيبه من الخير والشر، ثم ما ذنب ابنتى؟

ـ دعينى أشرح لك..

قاطعتنى بحدة:

ـ لا يهمنى الشرح، ما يهمنى حقا هو مستقبل ابنتى وسمعتها!

فقلت محتجا:

ـ سمعتها بخير دائما.

ـ كلا، زيارتك لها معنى لم يعد فى صالحها.

وقالت ملك محتجة:

ـ ماما!

فصاحت بها:

ـ اسكتى أنت!

عميت عما أمامى. غادرت الشقة مطرودا. أترنح تحت ضربات الإهانة واليأس والحزن. أتساءل فى ذهول هل حقا انتهى كل شىء؟ الحب والأمل؟ ملك والزواج؟ وردمتنى عاصفة كراهية لكل شىء. خنقتنى الحقيقة البشعة وهى أننى منكوب بأسرة منكوبة. تبدى بيتنا مساء على مثل الحال التى كابدها يوم وفاة أبى. أمى وفكرية وزينب على كنبة واحدة فى الصالة حائرات البصر من القهر والخجل والشعور بالذنب. تقول أمى:

نحن حمل ثقيل ولكن ما حيلتنا أمام قدرنا؟

وقالت فكرية وكانت أحن على من أمى:

ـ أود المستحيل لإسعادك ولكنى عاجزة.

وصمتت زينب ولم تكن دونهما كربا. غمغمت وأنا ماض إلى حجرتى:

ـ ليفعل الله ما يشاء.

اليوم كلما نظرت إلى الوراء لم أر إلا التفاهة والعقم والحرمان. وأحلام اليقظة حول المال والنساء. والسجن الخبيث فى أبو خودة. وكلما آنس حمادة الطرطوشى منى شرودا أو كآبة قال بين المزاح والجد:

ـ اذهب إليها، إنها وحيدة مثلك..

باتت تثير رغبتى كالزمان الأول. وما أكثر ما عاشرتها فى الخيال. ويقول حمادة أيضا:

ـ لو كان الزمان غير الزمان لوجدت امرأة تخدمك خدمة شاملة!

ثم مواصلا وهو يقهقه:

ـ أعنى كالتنمية الشاملة!

العجوز رائق ويمزح عليه اللعنة. بل يقول:

ـ أتريد الحقيقة؟ كان بوسعك أن تتزوجها..

فحدجته بغضب فقال:

ـ لو كنت مكانك لجهزت حجرتى ولو بالتقسيط وضممت البنت إلى الأسرة وليفعل الله ما يشاء..

قلت بحدة:

ـ هذه الأفكار لم تكن ترد على الخاطر فى ذلك الزمان..

ـ لا تغضب، أرى أنك سلمت للهزيمة دون مقاومة حقيقية.

فقلت بصرامة:

ـ من فضلك لا تحملنى مسئولية سوء حظى.

ولم يقنع بيتنا بسوء حظه ولكنه أضاف إليه نكدا وقرفا. كأنما الكراهية تهيمن عليه. فكرية وزينب فى مشادة، فكرية وأمها فى شجار، زينب وأمها فى نقار. تقول فكرية:

ـ لو تعلمنا وتوظفنا لتغير حالنا، الله يسامحكم..

فتصيح أمى:

ـ زمان المرحوم غير هذا الزمان، دعوه يرقد بسلام..

فتقول زينب:

ـ ليتنى أملك الشجاعة لأعمل خادمة..

فتهتف أمى:

ـ ربنا يريحنى بالموت!

آه يا بيت النكد والكآبة. أما من نهاية لهذه الاتهامات المتبادلة؟ أما معى فكن يقدمن خير ما تنطوى عليه مشاعرهن من رقة وحب. أنا رب البيت وضحيته. وبقدر ما أسخط عليهن أعطف وأحزن. كم كانت أمى ربة بيت ممتازة. وكم كانت سعيدة فى علاقتها مع أبى. ولكنها لم تتصور تلك النهاية الكآبية لأسرتها. تساءلت مرة بضيق:

ـ لماذا لا يخلو بيتنا من عنف؟

فقالت أمى:

ـ كيف تستخرج العسل من الخل؟ أنت نفسك..

فقاطعتها متحفزا:

ـ أنا نفسى!

ـ الحق أنى أتمنى الزواج لهما من أجلك أنت..

تساءلت بسخرية:

ـ هل لو جاء العريس المعجزة سأجد ما أجهزهما به؟

فتنهدت ولاذت بالصمت فقلت بحدة :

ـ وأنا، ما ذنبى؟

فقالت بعصبية :

ـ اذهب وتزوج واتركنا لمصيرنا . .

فصحت بحدة :

ـ حتى هذا لا أستطيعه . .

بيت النكد الذى أزداد مع الأيام مـقـتـا له . نفس الوجـوه، نفس الأسى، نفس الحرمان، أليس لهذه الحياة من نهاية؟ فكرية عنيفة، وزينب أنانية، لا يبرحان البيت كرها فى العالم ولخلو صوانهما من أى ملابس لائقة . والحرب تشتد والأسعار تتصاعد والقلق يتجمع . أقول لأمى :

ـ مأساتنا الأصلية أصبحت ترفا، علينا أن ننضبط فى الإنفاق لأقصى حد .

ـ إنى أبذل كل ما فى وسعى .

ـ لم يحتط أبى الله يرحمه للمستقبل!

هبت للدفاع كعادتها قائلة :

ـ لم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل .

ـ أنفق عن سعة، وبالغ فى تدليلى فأفسد على حياتى!

ـ أتلومه لأنه أحبك أكثر من أى شىء فى الدنيا؟

ـ ألم يكن من الأصوب أن يوفر نقودا لزواج ابنتيه؟

ـ كان فى نيته أن يستبدل جزءا من معاشه كلما احتاج إلى تجهيز واحدة . .

وذات يوم استدعانى رئيسى لمكالمة تليفونية . وجاءنى صوت خفق له

قلبى بعنف، ملك حبيبتى دون غيرها. وسمت لى موعدا عند الأصيل بشارع السرايات. التقينا وليس فى قلبى نبضة أمل واحدة. بعد عام فراق معذب طويل حزين. ها هو من جديد الوجه الجميل والجسم المترع بالجاذبية. وفى شىء من الارتباك والحياء قالت:

ـ نسيتنى طبعا!

فسرنا وأنا أقول:

ـ لم تخطر لى هذه النهاية ببال.

ـ وأنا كلما تقدم لى رجل رفضته ولكن كيف لى بالصمود أمام العواصف؟

ـ أنا خجلان يا ملك.

ـ ألا توجد بارقة تحسن؟

ـ من سيئ إلى أسوأ!

فسكتت بائسة. وقلت:

ـ لا يصح أن أخدعك.

وتقدمنا صامتين كأننا نشيع ميتا حتى شارفنا ميدان المستشفى الفرنسى فتمتمت:

ـ بوسعى أن أفعل ما تشير به على.

فقلت فى استسلام نهائى:

ـ لا أشير عليك بشىء، حسبى شعورى بالإثم على ما ضيعت من عمرك..

وكان المساء يهبط بثقله فى كثافة مركزة لا تخففها المصابيح الملونة بالأزرق تنفيذا لتعاليم الدفاع الجوى. وكان علينا أن نفترق قبل أن نصل إلى شارع العباسية. الفراق النهائى الذى يجرف معه كل شىء. وقفنا. سألتها بصوت غريب:

ـ هل أستحق فى نظرك أى لوم يا ملك؟

هزت رأسها دون أن تنبس. تلاقت يدانا. وآخر ما قلت كان:

ـ سأدعو لك دائما بالسعادة..

وذهبت وبصرى منغرز فيها. ما فعل اللقاء إلا أن جدد الأحزان، نكأ الجرح. وتضاعف سخطى على كل شيء حتى إننى صرت من قراء صحف المعارضة بلا أدنى اهتمام حقيقى بالسياسة. وقلت لعلى يوسف:

ـ خبرنى يا خبير، أمامى عزوبة أبدية فما العمل مع المشكلة الجنسية؟

فضحك عاليا ونحن نتجول فى حديقة الأزبكية وقال:

ـ جرب من جديد.

فقلت يائسا:

ـ لا أطيق المحترفات ولا الخمر!

فإذا به يقول:

ـ لم يبق لك إلا أم عبده!

هتفت بذهول:

ـ أم عبده؟!

قال ببساطة:

ـ تربت عندكم، منكسرة، وفيها رمق لم لا؟

ـ إنها تكبرنى بعشر سنوات..

ـ لم أقترح عليك الزواج منها يأستاذ!

ليس فى الكون بقعة محطمة بالعفونة وعامرة بأحلام اليقظة مثل العمارة البالية بشارع أبو خودة ومقهى النجاح بميدان الجيش. ماذا بقى لمتقاعد وحيد؟! لو تهيأت لى وفرة فى المال لقمت بسياحة دخل القطر

تغطيه من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه. ولو غمرتنى ثروة مباغته لقريب تركها لى فى البرازيل مثلا لشرقت فى الأرض ولغربت بلا حساب، ولتزوجت من فتاة حسناء دون مبالاة بالعواقب. ما ألذ الأحلام وأقساها، على حين تقيمين يا ملك على مبعدة أمتار منى ولا أحرك نحوك ساكنا. نحن سلالة ذكريات واحدة، وفريسة شيخوخة واحدة، وقلبى يحدثنى بأنك مازلت امرأة! وقال لى حمادة الطرطوشى بسرور:

ـ ابنى رقى إلى درجة مدير عام.

فهنأته وقلت:

ـ القهوة والسندوتش على حسابك هذا المساء.

فقال بحزم:

ـ على القهوة فقط!

ـ هل ما زلت تعاشر حرمك جنسيا؟

فضحك الرجل وقال:

ـ سؤال بارد.

ـ معذرة ولكنه يهمنى.

فقال باقتضاب:

ـ عندما أشاء.

ثم مواصلا:

ـ كثيرا ما توجد القدرة غير مصحوبة بالرغبة..

ثم قال برثاء:

ـ كيف فاتك الزواج؟ ما عرفت رجلا له مثل حنينك إلى الزواج..

فقلت بمرارة:

ـ مازلت أحمل أسرتى حتى العام الأخير، وكلما ارتفع المرتب درجة ارتفع الغلاء درجتين.

ـ يا للخسارة، وأم عبده رحلت قبل الأوان!

ـ بل بعد الأوان، وبعد أن استحالت رجلا!

ـ قسمتك. ماذا يقعدك عن مقابلة ملك؟

وراح على يوسف يلاحقنى بنظراته مستطلعا. إنى أعرف ما يريد أن يسأل عنه وأتجاهله. حتى سألنى ونحن جالسان فى مقهى الانشراح القديم الذى محله اليوم معرض للأثاث:

ـ ما أخبار أم عبده؟

ضحكت وقلت:

ـ مغامرة غريبة ولكنها كللت بالنجاح..

فتساءل بشغف:

ـ كيف؟

ـ ماذا أقول؟ إنها عشرة عمر، عرفتها منذ الطفولة كأنما هى قطعة من أثاث البيت، وازدادت العلاقة احتراما بعد أن خلفت أبى، ولعلها دهشت كثيرا عندما آنست منى تغييرا فى النظر والكلام، ومثل هذه الأمور لا يغيب مغزاها إلا عن المعتوهين، وهى امرأة طيبة ولكنها لحسن الحظ ليست معتوهة، لما مددت يدى ذهلت، تراجعت، وتلاحقت أنفاسها فى اضطراب واضح، الآن كل شىء يمضى على أحسن وجه، ولكن فى حذر شديد.

ـ تخاف الفضيحة؟

ـ طبعا.

ـ لقد حرموك من الزواج فهل يردن إعدامك أيضا؟

ـ بل إنه الأدب والحياء من ناحيتى . .

ـ المهم هل ارتاحت أعصابك؟

ـ نعم .

ـ ادع لى .

فقلت ضاحكا :

ـ لاعدمتك من قواد كريم!

نعم لقد حظيت بالراحة ولكن تضاعف شعورى بالقرف والعقم والتفاهة . وتساءلت ترى هل يحق لنا أن نحسد الأمم المشتبكة فى الحرب؟ اعتدنا سماع الأهوال وصفارات ا لإنذار ورؤية جنود الحلفاء . وأذهلنا تقلب الحظوظ وانكسار الجبابرة . وكنت ألقى على يوسف مرتين، مرة فى مقهى الانشراح، والأخرى فى المخبأ قبيل الفجر . وقال لى ذات مساء :

ـ أريد أن أعرف رأيك بصراحة فى أمر هام .

فتساءلت ولا فكرة لى عما سيقول :

ـ خير؟

فسألنى فى شيء من الارتباك .

ـ ما العلاقة الآن بينك وبين ملك؟

اقتحمتنى المفاجأة . خرست دقيقة . ثم أجبت بصراحة :

ـ لا علاقة على الإطلاق .

ـ إنى لا أسأل عن العلاقات الرسمية ولكن عن قلبك؟

ـ الماضى نسى تماما .

ـ ألا يحزنك أن تتزوج اليوم أو غدا؟

ـ بل أتمنى لها السعادة ولعل زواجها يقتلع من قلبى رواسب الشعور بالذنب . .

ـ سؤال آخر :

فتساءلت مبتسما :

ـ أفندم؟

ـ ما رأيك لو أستأذنك فى خطبتها لنفسى؟

فقلت ببساطة :

ـ ستجدنى أول المهنئين .

ـ أطالبك بالصراحة التى لا تعقب ندما من ناحيتك أو ناحيتى!

ـ بالصراحة نطقت . .

كنت صادقا . مرت فوقى سحابة كآبة لعل رياح الخيبة هى التى دفعتها ولكنى لم أكابد حبا أو غيرة . وجثم فوق صدرى أكثر من الأول شعور الإحباط واليأس . ويوم رويت ذلك الموقف لعم حمادة الطرطوشى سألنى :

ـ أكنت شفيت حقا من حب ملك؟

فأجبته بيقين :

ـ بكل تأكيد .

ـ ألم تكن تختارها زوجة لو سمحت الظروف؟

ـ بلى ولكن لصلاحيتها لذلك .

ـ إذن كانت ما تزال المرأة المفضلة؟

ـ وكان يمكن أن يقع اختيارى على غيرها أيضا!

فضيق عينيه وقال :

ـ أخبرتنى أنه كان يقيم معها فى عمارة واحدة؟

ـ نعم .

فقال بخبث :

ـ كان يحبها من قديم ورب الكعبة!

قلت بصراحة:

ـ خطر ذلك ببالي أيضا.

ـ إنه ثعلب!

قلت بحرارة:

ـ لم يخطىء فى حقى قط، وظل لآخر يوم فى حياته صديقى الأول.

ـ وهل وفقا فى الزواج؟

ـ كأحسن ما يكون التوفيق.

وأضفت من عندى:

ـ أنجب منها ولدين نابهين ولكنهما ـ مثل أبيهما ـ اندفعا فى النشاط العام، وبخلاف الأب اندمجا فى الإخوان، واضطرا إلى الهجرة إلى السعودية فتزوجا وأقاما هناك بصفة نهائية، وأنا أعتقد أن ملك تعيش اليوم عيشة ميسورة بفضلهما..

ـ ومتى ترملت؟

ـ منذ عشر سنوات تقريبا، مات صديقى فى عز قوته بالسرطان، عاش كريما نبيلا حتى آخر يوم من حياته..

تلقت أسرتى خبر زواج ملك بوجوم، وتضاعف شعورهن بالذنب فازداد البيت كآبة. وشهدت الزواج مع صديقى العريس وهنأت ملك. كأن ما كان لم يكن. وعجبت للعواطف وخداعها العابث. ولأوهام الصبا وأحلام الشباب. وغثاثة الواقع وصدقه ومرارته. وعلى أى حال فعلى يوسف شخص ممتاز، ودخله من المحاماة يفوق دخلى من الوظيفة عشر مرات. وقد هيأ لملك حياة ناعمة وربى ابنيه أحسن تربية وتاه بتفوقهما. أجل أزعجه نشاطهما السياسى لا لمخالفته لميوله الوفدية

فحسب، ولكن للخطر المهدد لأمنهما من ناحية الحكومة. ولعله سعد بهجرتهما إلى السعودية ولكنه سرعان ما عذبه الشوق الدائم لهما وبخاصة وأنه كان فياض الأبوه. وهيهات أن أنسى حربه القصيرة مع سرطان المثانة، ولا عذاب أيامه الأخيرة، ولا رحيله الذى خلف وراءه فراغا فى قلبى لا يملأ بحال من الأحوال. ولم يكن لى من عزاء تلك الأيام إلا فى تقدمى فى الوزارة وعلاقتى السرية بأم عبده، وسلمت بالواقع المتجسد فى نسوة ثلاث متوترات الأعصاب منعمات بالسخط كأنهن الرمز الحى للزمن الموغل دوما فى الغلاء والتناقضات وسوء الحال. وعقب قيام الثورة ساءت صحة أمى وتدهورت الحال النفسية لأختى زينب فدهمتنى مصروفات جديدة للعلاج والدواء. واعتدت العزوبة ولازمتنى تطلعاتى القديمة نحو الزواج والإنجاب كحلم حزين دائم لا سبيل إلى تحقيقه. وجعلت أتساءل فى ضيق متى يتاح لى التخلص من هذا الكهف المليء بالنفايات. وربما أحزننى وسرنى معا استباقهن إلى خدمتى وتوفير الراحلة لى. ليست هذه الراحة العفنة هى ما أنشد. إنهن يكبلننى بالحديد والعمر ينطلق ساخرا. وكانت أم عبده أولى الراحلات، أما أمى وفكرية وزينب فلم يرحلن إلا فى آخر عام لى فى الخدمة. سبقت أمى فى قمة الشيخوخة، وتبعتها بعد أشهر فكرية فى السبعين، ثم زينب فى الثامنة والستين. وكل جنازة كلفتنى الشيء الفلانى حتى اضطررت إلى الاقتراض، ثم وجدت نفسى وحيدا فى الستين فى عالم جن جنونه وانقلبت موازينه وأصبحت الليمونة فيه بعشرة قروش ويقول لى حمادة الطرطوشى:

ـ لن أسمح لك بالاستسلام لليأس، إن يكن مسكنك كريها فثمة آلاف من سكان المدافن يحسدونك، بيدك أيضا أن تعمل فى شركة استثمار وتحسن مرتبك، وتوجد سيدة وحيدة مثلك فلم لا تزورها؟

ويقول الرجل أيضا وهو يضحك:

- صحتك والحمد لله ممتازة، وخواطرك الجنسية تبشر بكل خير..

وقلت له ذات مساء:

- قررت التحدى والقيام بالمغامرة.

فهنأنى العجوز على شجاعتى. وضاع أكثر يومى الثانى فى الاستعداد للمساء. حلقت شعر رأسى وذقنى. أسلمت جسدى للدش طويلا. ارتديت أحسن ما عندى من بنطلونات وقمصان، انتظرت المساء طلبا للستر ثم عبرت الشارع العمومى للضفة الشرقية. خطر لى على يوسف. قلت إنه لم يخنى ولا أخونه وقلت أيضا لنفسى إنه لعار أن يرتبك شخص فى مثل سنى. وقفت أمام باب الشقة فى الدور الثالث فى ظلام تام ضغطت على الجرس. سمعت أقداما آتية، وفتحت الشراعة، وتساءل الصوت القديم:

- من؟

أضاءت المصابيح فى أعلى الباب فتجلى وجهى. لم تصدق عينيها.

هتفت:

- أنت!

فتحت الباب. وضح تلعثم حالها. أشارت إلى حجرة إلى يمين الداخل هامسة:

- تفضل.

ذهبت وبقيت بمفردى واقفا. الجو خانق. فتحت نافذة تطل على الشارع. نفس حجرة الاستقبال القديمة ولكن الأثاث جديد وعصرى هل أندم على هذه الخطوة؟ لعلها الآن تغير ملابس البيت. لم أرها من قريب منذ زمن طويل طويل. وقع الأقدام من جديد. رجعت مطوقة

الرأس بمنديل أبيض، فى فستان صيفى لبنى لكنه محتشم، لا يكشف إلا عن ساعديها وأسفل ساقيها. تساءلت وهى واقفة:

ـ تشرب قهوة؟.. عندى عصير برتقال أيضا.

ـ لا داعى للكلفة والتعب..

ذهبت. بقيت صورتها. امتلأ الوجه أكثر من الماضى ولكنه متماسك ولا أثر للتجاعيد فيه، حلت الرزانة محل ماء الشباب، ولكنه وجه مقبول. ترى هل شاب شعرها؟ أما الجسم فقد امتلأ، بينه وبين البدانة خيط لا بأس. وهو داخل الفستان مثير. إى والله مثير. انهالت على أحلامى الجنسية كشلال. آه لو أضمها إلى صدرى ونتذاوب كما فعلنا كثيرا فى الماضى المليح. ولكن حذار فأنت لا تدرى شيئا عما يعتلج فى باطنها. ربما أقامت واستقرت فى وادى الأمومة والطهر. تمالك نفسك وتجنب الخطأ. رجعت بصينية فضية صغيرة عليها قارورة، ووضعتها فوق خوان من الخشب المطعم بالصدف، ونقلته أمام مقعدى. قلت لها:

ـ أتعبتك. اجلسى وارتاحى.

جلست على فوتيه فى الجناح المواجه لى، وفى تلك اللحظة انتهبت إلى صورة الزفاف المثبتة فى الجدار فوقها، وعلى جانبيها صورتان، الأولى لعلى يوسف والأخرى لابنيها فى زى العرب. هبت على عواطفى دفقة باردة وازدادت مهمتى عسرا.

ـ خطوة عزيزة، تذكرت أخيرا أهلك!

فقلت بأسف:

ـ هى الحياة كما تعلمين، ولكننى قلت إنه غير معقول أن نكون فى حى واحد ونعيش كالغرباء!

ـ أهلا بك، هل ما زلت تعمل فى الوزارة؟

ـ تقاعدت منذ أيام أو منذ ساعات!

ـ ربنا يطول عمرك، ألا يوجد من يخدمك؟

قلت ضاحكا:

ـ أعيش وحيدا مع الجدران القديمة.

ـ وأنا مثلك لولا امرأة بنت حلال تزورنى مرة كل أسبوع أمينة وماهرة.

ـ يخيل إلى أنك لا تغادرين البيت أبدا؟

ـ لا أخرج إلا كل حين ومين ولأسباب قهرية.

ـ الوحدة قاسية، لدى المقهى والصديق، ولكنها قاسية جدا.

فقالت بتسليم:

ـ عندى التلفزيون وجارة أو جارتان.

ـ هذا لا يكفى.

ـ أفضل من عدمه!

ـ وكيف حال ابنيك؟

ـ عال، استقرا هناك إلى الأبد، أصبح لى أحفاد، هى قسمتى على أى حال.

نطقت بها بأسى واضح فسألتها:

ـ ألم تسافرى إليهما؟

ـ مرة، وأديت العمرة..

قلت وقلبى يمعن فى تراجعه:

ـ مبارك يا حاجة.

ـ عقبالك.

ثم مواصلة:

- إن عزمت يوما فستجدهما فى انتظارك .

- كل شىء بمشيئة الله ، وكيف صحتك؟

- كيف صحتك أنت؟

- على أحسن ما يكون والحمد لله .

- وأنا كذلك ولكنى ركبت طاقم أسنان .

- هذا مفيد للصحة فى ذاته . .

- نسأل الله حسن الختام .

فقلت بحماس :

- أمامك عمر مديد بإذن الله ، وإنى سعيد برؤيتك؟

- وأنا كذلك ، ولو أننى كنت أتمنى ألا تكون وحيدا .

- أنت أيضا وحيدة .

فقالت بمودة :

- أعنى أنه كان يجب أن تكون لك زوجة وأولاد .

فقلت بأسف :

- القسمة والنصيب .

وأمسكنا ، ربما لنسترد أنفاسنا . أفرغت بقية القارورة فى جوفى وغرقت فى العرق . فارق كبير بين الحقيقة والخيال . تصورت أننى سأوجه الحوار إلى الهدف دون صعوبة ، وأننى سأثب إلى جانبها مثقلا بأشواق العمر ، وأنه وأنه وأنه . وهذا مناخ الجلسة ينضح بالجدية والأدب ، والسيدة مصونة لا تسمح بقدح شرارة عبث . وهذه الصور المطلة علينا تشاركنا الاجتماع وتصد عنه النزق بل وتغرقه فى الحزن . ترى فيم تفكر؟! ألم ترد على خاطرها ولو صورة فاتنة واحدة من الماضى الجميل؟ هل تهيمن على خواطرها كما تهيمن على سلوكها؟ . .

أود أن تطالعنى العينان بلمحة تذكر، أو مداعبة، أو حياء عابر، أو ظل ابتسامة تتعدد التفسيرات لها. لكننى لا أرى إلا نظرة رزينة، نظرة قريبة لقريب تلاقيا فى شيخوخة العمر. هل انتهت ملك وجفت ينابيعها؟. على أى حال لن أغادر الشقة بجعبة خاوية إلا من الفشل. ولن أسمح للجبن بأن يحملنى الندم إلى آخر البقية من العمر. قذفت إلى الماء متسائلا:

- هل يضايقك أن نخفف من وحدتنا بالزيارة من حين لاخر؟

فقالت بهدوء:

- أهلا بك.

ثم مع تردد واضح:

- ولكن..

أدركت ما تضمر فقلت:

- نحن أقارب ولنا من عمرنا ما يصد عنا الكلام.

فلاذت بالصمت فقلت يائسا:

- إذن لا توافقين على الزيارة!

قالت بسرعة:

- لم أقل هذا.

- لعلك توصين بالانضباط؟

- هذا ما يجدر بنا أن نفكر فيه.

- أود أن أعرف رأيك بكل صراحة.

- لو عندى رأى آخر لصارحتك به.

فقلت بحرارة:

- أنا فى أشد الحاجة إلى الزيارة، وحدتى لا تطاق وليس لى غيرك كما تعلمين، وطالما فكرت فى ذلك ومنذ زمن طويل..

لعلها ابتسمت ولكن وجهها تورد يقينا وهمست :

ـ أنا فاهمة ومجربة .

فقلت بشجاعة متصاعدة :

ـ إذن فكلانا فى حاجة إليها !

فضحكت وآثرت الصمت . وشعرت بأننا انتقلنا من عصر إلى عصر فقلت :

ـ الوحدة مرة ، والحياة مرة ، أتطلع إلى شىء جديد ، أنت جددت أثاثك . .

ـ شقتى تجددت تماما ، المرحوم ترك لى مبلغا لا بأس به ، وحيد أهدانى حجرة نوم جديدة ، وبكر حجرة للاستقبال ، واشتريت أنا حجرة سفرة .

ـ والغلاء ؟

ـ المعاش لا يجدى ولكن وحيد وبكر يمداننى بما أحتاج إليه ، ماذا تفعل أنت ؟

ـ يدى دائما على قلبى ، ولا أحد يهتم بالمتقاعدين ، ولكن أفكر فى بدء حياة جديدة !

ـ بعد التقاعد ؟

ـ صحتى على ما يرام ، ولدى مهارة فى اللغة الإنجليزية وخبرة فى الأعمال الإدارية ، وسوف أجرب حظى فى إحدى شركات الاستثمار . .

ـ مرتباتهم كبيرة .

ـ وأملى كبير جدا .

ـ فكرة جميلة .

ـ يسرنى أنك تشجعيننى . .

ورجعنا إلى الصمت فرأيت من المناسب إنهاء الزيارة . قلت :

ـ آن لى أن أذهب .

وكالعادة دعتنى للبقاء مجاملة ولكننى وقفت ومددت يدى للمصافحة . تمشيت فى الهواء الساكن متلهفا على نسمة من نسائم الصيف . إذا كان الخيال لم يتحقق فإنه أيضا لم يتلاش . ومضيت إلى مقهى النجاح بروح جديدة . ولما رآنى حمادة الطرطوشى مقبلا ابتسمت أساريره وقال :

ـ رجعت إلى شبابك ، لم أرك كاليوم أبدا . .

وجعلت أعيد على مسمعه ما دار بينى وبينها واجدا فى ذلك سعادة جديدة . وعلق الرجل قائلا :

ـ أنا متفائل ، وأنت؟

فتفكرت قليلا ثم قلت :

ـ بنسبة ٥٠٪ .

ـ لا ، أكثر من ذلك .

ـ حقا .

ـ كان بوسعها أن تجعل من الزيارة الأولى والأخيرة . .

ـ لا شك فى ذلك . .

ـ ولا أظن أنه غاب عنها مقصدك . .

ـ أتمنى ذلك .

ـ صدقنى ، أنا أدرى بالنساء منك ، ولكن هل وجدتها حقا صالحة؟

فقلت بحماس :

ـ أؤكد لك أنها ما زالت جذابة . .

فقال الرجل وهو يضحك :

ـ على سبيل الحيطة لا تتمادى فى التفاؤل، المظهر فى مثل سنها غير المخبر، قد يبدو الجسم مغريا داخل الفستان، ولكن إذا عرى تجلت به ثغرات وحفر مثل شوارع هذه الأيام، لذلك أنصحك إذا وفقت إلى ما تريد أن تمارس حبك فى الظلام!

ولم أتمالك فى الضحك طويلا ثم قلت له :

ـ المهم أن أوفق أولا . .

لدى عودتى إلى شقتى أطبقت على الكآبة. تضاعفت كراهيتى لها وتمنيت لها النار. باتت الرغبة فى التغيير قوة قاهرة لا تقاوم، وفترت متعتى بالمقهى والتلفزيون فى الأيام التالية. الزيارة هى الأمل الباقى الوحيد. تكرارها بعد أسبوع قليل، بعد شهر غير محتمل، فلتكن بعد أسبوعين. فى أثناء ذلك عرفت أن شركة جنرال إليكتريك فى حاجة إلى وظيفة فى فرع منها يقوم بمشروع لبناء محطة مياه مشروع مؤقت مدته ثلاثة أعوام ولكن المرتب ٤٠٠ج. م غير بدل الانتقال. وقدمت للامتحان. وقع الاختيار على فتاة ولكن المدير عرض على وظيفة فى العلاقات العامة بثلاثمائة جنيه، قبلت وأنا فى منتهى السعادة. لم أتمكن فى نطاق دخلى الجديد من الانتقال إلى حى جديد ولكن الغذاء والكساء سيقفزان قفزة خيالية. وانتظرت أسبوعين ثم مضيت فى ميعاد الستر إلى بيت حبيبتى. الصبر نفد، والشوق تأجج واشتعل، والعزيمة صممت. أقنعت نفسى بأن الشيخ لا يجوز أن يتعلثم كصبى أو يخجل كمراهق. ولما فتحت لى حجرة الاستقبال رجوت أن نجلس فى حجرة المعيشة، استزادة من الألفة فى الظاهر وهربا من الصور فى الحقيقة. وقلت لها بصدق :

ـ حياتى بفضلك أصبحت مما أغبط عليه .

فابتسمت قائلة :

ـ لا تبالغ . .

فقلت بارتياح :

ـ التحقت بشركة جنرال إليكتريك . .

ـ مبارك .

وحكيت لها عن المرتب وكل شيء وقلت :

ـ يمكننى الآن أن أحقق هدفى . .

وبدت أنها لم تفهم مقصدى فقالت :

ـ إن كنت تروم شقة جديدة فأشك فى تحقيق هدفك .

فقلت بجرأة :

ـ هدفى أهم من الشقة؟

ـ حقا؟!

ـ إنى أفكر جادا فى الزواج . .

خيل إلى أنها أجهضت دهشة بلباقة وتمتمت :

ـ الزواج!

فقلت بثقة :

ـ إنى على أتم ما يكون من الصحة . .

فابتسمت فى ارتباك وقالت :

ـ ربنا يزيدك صحة وعافية .

ـ وددت أن أعرف رأيك؟

ـ لم لا ، مثلك يتزوجون ، وأكبر منك أيضا . .

ـ هذا ما قلته لنفسى .

فقالت بشىء من المرح :

ـ دعنى أبحث لك عن زوجة مناسبة .

ـ ما الزوجة المناسبة؟

ـ لعلها سيدة عاقلة لا تقل عن الأربعين .

ـ ستكون فى تلك الحال أرملة أو مطلقة .

ـ وما المانع؟

ـ ولها أولاد، وربما فى سن الحضانة . .

ـ لابد من الرضا بالواقع المتاح . .

فركزت بصرى الثمل فى عينيها الحائرتين وقلت :

ـ إنى أعرف من أريد ولا حاجة إلى البحث .

فتساءلت وهى تغوص فى الحصار :

ـ ماذا تعنى؟

فقلت باستسلام وضراعة :

ـ ملك، أنت الزوجة التى أريد .

غضت بصرها وقطبت دون أن تنبس فرجعت أسأل فى إلحاح :

ـ ما رأيك؟

ـ أهذا ما رجعت من أجله؟

ـ أى نعم .

ـ يا للفضيحة .

ـ الفضيحة .

ـ لا أدرى ماذا أقول . .

ـ إنه مطلب طبيعى ولا فضيحة فيه على الإطلاق . .

فقالت بصوت متهدج :

ـ الزواج لا يمكن أن يخطر لى ببال .

ـ دعيه يخطر، كان أعز أمانينا . .

فقالت وهى من الحياء فى ضيق شديد :

ـ ذاك تاريخ مضى وانقضى ونسى . .

فقلت بحرارة :

ـ إنه يعيش معى الآن بكل قوة .

ـ أنت لا تدرك معنى ما تقول . الوحدة أطاحت بالحكمة، وسيتمخض الحلم عن لا شيء . .

ـ إنى أعرف ما أريد .

فقالت بانفعال شديد :

ـ لا . . لن أسمح بفضيحة . .

ـ لماذا ترددين هذه الكلمة القبيحة؟

ـ هى الحقيقة، أنت تتناسى أننى أم وجدة .

فقلت بضراعة :

ـ الدهشة تعيش ساعة واحدة ثم يلوذ الإنسان بسعادته . .

فغضت بصرها فى أسى وهمست :

ـ لا تحرمنى من سكينة القلب . .

خيل إلى أنها انقلبت فى نقاشها امرأة لا أما أو وجدة أو قريبة فحسب . انتفضت قائمًا وخطوت نحوها لأجلس إلى جانبها كالزمان الأول، ولكنها وثبت هاربة وهى تهتف بجفاء :

ـ لا تلمسنى .

كأنما تلقيت لطمة . تجمدت لحظات . فى غاية من الانهيار واليأس، ثم همست وأنا أتحرك :

ـ أستودعك الله . .

لم أذهب إلى المقهى. لم أرجع إلى البيت. سرت طويلا على غير هدى. استرحت قليلا فى بعض مقاهى الأطراف. عدت إلى مقبرتى مع الفجر. فى اليوم التالى، وأنا فى طريقى المألوف إلى مقهى النجاح، رفعت عينى إلى شرفة مسكنها. وإذا بها تقف فوق عتبة الشرفة وكأنها تنظر نحوى. وبدافع الأدب والمجاملة أحنيت رأسى تحية فإذا بها تلوح بيدها محيية. خفق القلب وتسمرت القدمان. ماذا تعنى يا ترى؟. وفتحت مصراعى النافذة وتراجعت قليلا ثم لوحت بيدها مرة أخرى واختفت. فسرت الإشارة على هواى. وعبرت الشارع نحو العمارة يستخفنى طرب غامر. لم أبال هذه المرة بانتظار المساء.

(تمــــت)

أعمال نجيب محفوظ

١ -	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ -	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ -	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ -	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ -	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ -	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ -	خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ -	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ -	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ -	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ -	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ -	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ -	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ -	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ -	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ -	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ -	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ـ	الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ـ	ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ـ	ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ـ	أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ـ	تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ـ	شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ـ	المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ـ	الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ـ	الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ـ	الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ـ	حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ـ	قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ـ	حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ـ	الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ـ	عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ـ	أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ـ	ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبـاح الـورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صـدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتـوة العطـوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤

رقم الإيداع ٩٨٦٤/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 7 - 1577 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

